AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 01025 1365

FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة

03-B2275 Put

BJ
1588
.A7
M8

فن الحب والحياة

بقلم

سلامه موسى

كتاب اليوم

مقدمة

كتبت هذا الكتاب فى ضوء اختباراتى للوسط المصرى وقد عالجت موضوعه من جملة وجهات فلسفية وسيكلوجية واجتماعية

ونحن نعيش فى حضارتنا القائمة عيشا ، مكيفا ، بعادات المجتمع موجها الى أهدافه مدربا على أساليبه . ولذلك ننساق انسياقا كأننا ذاهلون لا نقف ولا نسائل عن القيم البشرية فى هذه العادات والاهداف والاساليب .

وليس شك ان غاية الحياة أن نحيا الحياة على مستواها السامى ومعنى هذا الكلام هو أن نعيش بما لدينا من كفاءات بشرية تسمو على كفاءات الحيوان . أى يجب أن نعيش بالتعقل وليس بالغريزة والعاطفة . وفن الحياة هو ، فى النهاية ، الارتفاع بكفاءاتنا الموروثة الى ما كسبناه واقتنيناه من التراث الاجتماعى الثقافى .

ولكن هذا التراث الاجتماعى الثقافى يجب الا يسوقنا والا يضلنا عن القيم الاصلية فى الحياة. وقد التفت فى الفصول التالية الى ثلاثة أو أربعة أشياء لكل منها مكانة مركزية فى البحث عن فن الحياة .

التفت أولا الى أن النجاح يجب أن يكون كليا فى الحياة وليس فى الحرفة أو الزواج أو الكسب او المجتمع . فان كلمة النجاح فى مجتمعنا الاقتنائى كثيرا ما يشتبه معناها بمعنى الاثراء . ولكن الناجح الصادق هو الذى يجعل نجاحه كليا شاملا متوافيا لنشاط حياته كلها .

والتفت ثانيا الى أن المجتمع الذى نعيش فيه كثيرا ما يضلل بنا ويبعدنا عن القيم البشرية . بل هو أحيانا يسخرنا فى أهدافه التى قد تناقض ما ننشد من رقى أو سعادة . فهو منا بمثابة المدينة التى تكتنفنا بمساكنها وأضوائها الصناعية وضوضائها واهتماماتها الزائفة فنعيش فيها ونكاد ننسى أنه على مسافة ثلاثة أميال منا

ينهض الريف فى طبيعته النضرة وأشجاره ومياهه وحيوانه . بل ننسى أن فى السماء نجوما وكواكب . وقد نألف عادات هذا المجتمع فلا نجد النشاط الى تغييرها ولا ننهض الى الخروج الى هذا الريف القريب . وكذلك الشأن فى تلك القيم الاجتماعية وأثرها فى نفوسنا حين نعيش فى أسر هذه القيم الزائفة طيلة حياتنا

وقد احتجت الى أن أوضح أن السعادة كما ينشدها الجمهور انما هى فى أغلب الاحيان ذهول وتبلد أو استرسال فى العواطف الحيوانية التى تحركها غرائزنا السفلى . وان هذه السعادة ليست جديرة بانسان راق يرتفع الى أن يجعل من حياته فنا . وعندى أن التعقل هو صميم السعادة . وانه مهما فدحت الكوارث فان التعقل يواجهها فى شجاعة وتحد وفهم

كذلك التفت الى قيمة الثقافة من حيث أنها تكفل لنا توسعا ذهنيا ينتهى الى أن يكون توسعا حيويا . لانها ، أى الثقافة ، تزيد اهتماماتنا وتعودنا عادات ايجابية عندما نصل الى الشيخوخة . وعنيت مع شيء من الاسهاب بقيمة الحب فى مجتمعنا وفى السعادة الزوجية . كما انى أسهبت فى بحث عاداتنا وكلماتنا الجنسية وما لذلك من اثر فى سعادتنا العائلية

وكان يمكن أن أسمى هذا الكتاب «الحياة السعيدة» لولا أن كلمة السعادة قد ابتذلت فى معان سفلية . كما أن هناك التباسات واشتباهات كثيرة عن حقيقة معناها . وقد احتجت الى التنبيه عن ذلك . ولكن فى عبارة « فن الحب والحياة » ما يرفع القارىء عن مبتذلات كلمة « السعادة ».

وأرجو أن يكون فى الفصول التالية توجيه لقرائها من الشباب والكهول .

سلامه موسى

فن الحياة

القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية

تعيش الحيوان على المستوى الفطرى : يأكل ويشرب ويتناسل ولكنا نحن البشر نعيش على المستوى المدنى الفنى الثقافى . وقد لايصدق هذا على جميع البشر ، او بتعبير أصح ، قد لايصدق هذا القول من حيث الدرجة التى يبلغها البشر فى المدنية والفنون والثقافة . ثم هو لا يصدق على جميع الطبقات حتى فى الامة المتمدنة . فاننا ما زلنا نجد الطبقات الفقيرة فى مصر والهند تعيش على المستوى الفطرى . بل الحال كذلك أيضا فى الطبقات الفقيرة فى امم أوربا الجنوبية حيث يقنع أفرادها بالحياة السلبية أى باتقاء الموت والجوع والمرض والفاقة . وهؤلاء جميعا لايلتذون الحياة وانما يكابدونها

ولكن جميع الامم المتمدنة تحوى طبقات من الشعب تعيش الحياة الايجابية ، اذ هى قد اطمأنت من ناحيتى الجوع والمرض . بل هى قد استبعدت الموت الى ما بعد السبعين أو الثمانين من العمر . وهى تجد فى كفاية العيش ما يتيح لها الاستمتاع الروحى والمادى . وهذه الطبقات تمثل فى عصرنا طلائع البشرية القادمة حين يعيش جميع الافراد ، جميعهم بلا تمييز ، على المستوى الفنى الكمالى لان الضروريات تتوافر الى الحد الذى لا يحسب لها فيه حساب ولا تكون سببا للهموم والاهتمامات . وليس هذا العصر بعيدا . بل هو أقرب الينا مما نتخيل

والانسان فى كفاحه الاجتماعى ينشد الضروريات أولا حتى اذا توافرت طلب الكماليات . ثم تعود هذه الكماليات ضروريات الاجيال القادمة . فهى ترف أولا يقتصر على أفراد معدودين . ثم رفاهية ثانيا تشمل طبقة كبيرة . واخيرا ضرورة لجميع أفراد الشعب المتمدن المثقف .

أنظر الى الطعام : نشد فيه الانسان البدائى الشبع . لايرجو

غير هذه الضرورة الفطرية . وانظر الى المسكن الذى كان يبنيه للاحتماء من الوحش أو العدو أوالجو. ومازال يسمى «بيتا» لانه كان للمبيت فى الليل فقط. وانظر الى اللباس الذى كان يتخذه للدفء . أجل لقد كان الطعام والمسكن واللباس من الضروريات ولكن من منا نحن المتمدنين يقنع من هذه الثلاث بالضروريات الفطرية في عصرنا ؟

صحيح أن للفاقة ضغطها المرهق بين الطبقات التى لاتزال فى أسفل الدرج من السلم الاجتماعى . وصحيح أن هذه الطبقات لا تزال تقنع بالضروريات الفطرية من المسكن واللباس والطعام . ولكن فى كل امة طبقات اخرى استمتعت بقسط كبير من المال والثقافة والحضارة . وهى لذلك تتوخى الفن فى كل ماتتناول من عمل . فالمسكن ليس ماوى أومبيتا فقط ، اذ هو متحف أيضا يتزين بالاثاث الفاخر والصور الجميلة والطرف الانيقة . وسيداتنا وآنساتنا لا يطلبن من اللباس دفئا قدر ما يطلبن منه زينة وجمالا . والمائدة التى تحمل ألوان الطعام نتفنن فى ترتيبها وايجاد الاطباق الثمينة والآنية الغالية عليها . وهذا الى ترتيب الزهور ونحو ذلك حتى ليعد تناول الطعام منها نشاطا ذهنيا فنيا وحتى لنكاد ناكل بعقولنا وأذواقنا العالية .

فهنا فنون فى البناء والاثاث واللباس والمائدة نرتاح اليها ولا نرضى بأن نعيش بدونها تلك المعيشة الفطرية التى كان يقنع بها الانسان البدائى وما زال يضطر الى أن يقنع بها أو بما يقاربها الفقير المغبون . وقيمة الفن أنه يرفع مألوفنا الى مستوى من الجمال نزداد به لذة واستمتاعا بل نزداد به فهما وتعقلا

وبالفن نرفع المشى الى الرقص . ونرفع النثر الى الشعر . ونجعل من الكلام بلاغة . وكذلك نستطيع ان نحيا الحياة الفنية فنهدف الى الفن فى الحياة ، والبلاغة فى السلوك والتصرف . ويجب

أن يكون فن الحياة أخطر من فنون الحضارة . لانه اذا كان من الحسن أن نتخذ الزى الفنى للباسنا فان من الاحسن أن نتخذ الزى الفنى لحياتنا وتصرفنا وسلوكنا

والمشكلة الاولى لكل انسان على هذا الكوكب أنه سيعيش سبعين أو ثمانين سنة . فكيف يقضيها ؟

هل يعيش تلك الحياة التى يصفها شكسبير بأنها « قصة يقصها ابله فتحتفل بالضوضاء والغضب ثم لا تكون لها دلالة ؟ »

أو يعيش تلك الحياة البقلية يولد وينمو ويموت وكأنه بعض البقول لان قصارى ما كان يطلب طعام وكساء ومأوى ؟

قد يخطر بذهن القارىء عندما نذكر الحياة الفنية أو الحياة البايغة اننا انما نقصد الى زخارف وبهارج . ولكن الفن الخالص والبلاغة الحقيقية يعنيان فى لبابهما حكمة وسدادا . لان كلمات الحكمة هي أسمى أنواع البلاغة والفن . ولكن ما هى الحكمة ؟

هى العمل أحيانا بالمعرفة

وهى أحيانا تجاهل المعرفة

وأخيرا هى التمييز بين القيم والاوزان

والانسان يختلف من الحيوان من حيث أنه يتعقل فى حين أن الحيوان غريزى يندفع . ونحن نهدف الى قصد فى حياتنا فى حين هو يعيش جزافا . ونحن نقرر مصيرنا بايدينا فى حين هو ينساق خاضعا للقدر . وقد يخالف قولنا هذا ذلك المنطق الآلى الذى يرتب النتائج على الاسباب ولكنه يطابق المنطق العملى الذى نحيا به فى مجتمعنا المتمدن

وحياتنا فى عصرنا هذا تضطرب وترتبك بل أحيانا تلتغز . وقد كان لآبائنا أعلام قديمة يسترشدون بها فى طريق الحياة الساذجة التى كانوا يحيونها . ولكن هذه الاعلام لم تعد تكفى لارشادنا فى طريق الحياة الجديدة . ولذلك نحن فى حاجة الى تعاليم

جديدة نتعلم بها كيف نحيا الحياة الفنية أي الحياة الحكيمة وكيف نقضي سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب ونحن نسمو وننضج الى الابداع . فلا تكون حياتنا مكابدة مؤلمة بل التذاذا روحيا وماديا . ونحن في مجتمعنا انما نحصل من التعليم في الاغلب، على أسلوب الارتزاق الناجح وليس على أسلوب الحياة السامية . لاننا ننسى أن الحياة اعم واهم من الكسب . واننا نكسب كي نعيش ولا نعيش كي نكسب كما هي الحال الآن

وانما صارت الحال كذلك لان شبح الفاقة يلوح على الدوام في مخيلتنا . ولذلك صار التعليم من أجل الارتزاق يغمر كل شيء آخر . لاننا نعيش في اقتصاديات القلة في حين أن اقتصاديات الوفرة على الابواب تنتظرنا بل تنادينا . ولا نحتاج الا ان نومىء بأصبع الرضى فيغمرنا الخير الوفير الذى لا نعرف فيه معنى الفاقة أو الحاجة . وعندئذ ، اى عندما نومىء هذه الايماءة ، ونرضى بالتعاون بدلا من المباراة ، في الانتاج ، نستطيع جميعا أن نعيش العيشة الفنية ونحيا الحياة الحكيمة وان نتوخى مأربا فنيا في كل ما نتناول من معارف أو معايش

وهنا يثب علينا المتشائم : لكأنك ترى الدنيا مشرقة في الوان الورد وقد غمرت السعادة جميع البشر بما سوف يدبرون من تعاليم أو انظمة . ولكن أين هذا التفاؤل من حقائق الدنيا ؟ من الامراض والرزايا ؟ من الرجل يفقد نور عينيه ويرى الدنيا ظلاما؟ من الأم تفقد طفلها وتضم لحمه الطرى ووجهه الحلو في تراب القبر ؟ من الشاب يسمع حكم الاعدام من طبيبه الذى ينبئه بمرض لايعالج ؟

ولكن هذا التشاؤم قد بولغ فيه . لان الكوارث نفسها جزء من فن الحياة وحكمتها . وذلك الانسان الذى لم تكرثه كارثة تصل الى مخ عظامه ، وذلك الذى لم يحس اللوعة يغص بالمها ويحمد من هولها ، ذلك الانسان لم يحى الحياة الفنية ولم يعرف حكمتها .

واقل ما يقال عنه أنه لم يعش الحياة الكاملة . ومع ذلك نحن نبالغ . فان كلا منا يعرف أن أعظم المصائب التي كان قد توقعها لم تقع له. وان بعض هذه المصائب كان مفيدا قد انتفع به . أنظر الى قول داروين : « لو لم أكن متمرضا الى حد عظيم لما اتممت كل هذا القدر الكبير من الاعمال، وذلك لان التزامه السرير للمرض قد اتاح له الفرصة للتفكير وتصور الاحياء على طراز جديد

وانها لحكمة عظيمة تلك التي نطق بها كاهن انجليزى ، قبيل خلع الملك تشارلس الاول ، حين قال : « ان أعظم ما ينكب به انسان الا ينكب . وأعظم مايعاقب به انسان الا يعاقب »

وكثيرا ما نعيش سادرين ذاهلين حتى اذا كرثتنا الكارثة تنبهنا كأننا قد استيقظنا من نوم فينبلج لنا نور وتنكشف لنا حقائق ما كنا لنراها لولا هذه الكارثة . وأيام المرض في السرير كثيرا ماتكون أيام التنبيه والتجديد .

ونحن في حاجة دائمة الى استعمال ذكائنا كي نميز بين لذة العاطفة ولذة التعقل ، وبين السرور الزائل والسعادة الباقية ، وبين الامتياز الذاتي في النفس وبين الامتياز المادى في العقار . أي بين ماتكونه وبين ما نملكه

والحياة الفنية هي الحياة الجميلة . ومع جميع التعاريف للفن والجمال لا نزال عاجزين عن تعريفهما الصحيح الذى يحدد كلا منهما . ولكن من منا لا يعرف الفن والجمال ؟

ان هناك أشياء نعرفها بالاحساس النفسى . وأشياء أخرى نعرفها بالاختبارات الذهنية وليست الاولى دون الثانية وان تكن في مرتبة أخرى . واذا كنا ننشد الفن والجمال في الاثاث والبناء والرسم فاننا يجب أيضا ، بل بأكثر عناية وهمة ، أن ننشد الجمال في الحياة ، في الشخصية الرشيقة ، والذهن اللبق، والجسم الانيق والمعارف المنسقة واللغة البليغة كما في الاخلاق السامية والاهداف الروحية والعلاقات الاجتماعية .

نحن غريزة وعقل

كى نعيش العيشة الفنيـــة ونحيا حياة الحكمة والتعقل يجب أن نعرف ان كلا منا مركب من غريزة وعقل . الغريزة هى قديمنا الموروث ، هى التقاليد الفطـريةهى ذاكرة النوع الجامدة. والعقل هو جديدنا الذى يتعلم وينمـــو ويميزنا بالفهم عن الحيوان

ذلك ان الحيـــوان يعيش بالغرائز او ان ٩٩ فى المائة من حياته كذلك . وفهمه للدنيا ذاتى عـــلى مستوى منخفض ليس له تعقل موضوعى . ولكن الانسان بعقله يستطيع ان يجعل فهمـــه موضوعيا وان يصل الى حقـائق الدنيا كما هى فى حقيقتهــا او ما يقرب من ذلك . وعلومنـــا وآدابنا وثقافتنا وحضارتنا انما هى ثمرات العقل وليست ثمرات الغرائز

الحيوان فى ذهول بغرائزه يحيا وكأنه فى حلم . والانسان بالمقارنة به فى تنبه ويقظة بعقله الذى يجعله يتصرف وهو يدرى انه يتصرف . ولكن الحيـــوان لايدرى

وهذا العقل هو الذى يجعلنا على دراية بالموت والفقر والكوارث حتى قبل وقوعها . ونحن بالطبع نشقى بكل ذلك . ولكن هـــذا الشـــقاء « انسانى » ولا نرتضى النزول عنه كى نعيش بالغرائز. نعيش فى ذهول كما يفعـــل الحيوان . وعندما نربى انفسنا او أبناءنا انما نعمد الى هذا العقل ونستنبط التفكير ومحـــاولة التعرف الى الاشياء كما هى فى حقيقتها وليس كما تصورها لنا غرائزنا .

وواضح انه ليس هناك انسان يعيش بعقله فقط يتعقل كل شىء ويتفهم الدنيا تفهما موضوعيا . لان كثيرا من تصرفنا يعـــود الى الغرائز التى تندفع بها احيـــانا اندفاع الحيوان او تسلط عليها التعقل فنعين لهذا الاندفاع سرعته وطريقته .

ومهمـــا حقر الانســـان وهان وانحط فانه يستطيع ، عنـــدما

يتامل عقله ، ان يقول : ما اعظمني! اى ما أعظم عقلى الذى يتجرد من غرائزى ، ويبحث النجـــوم والكواكب والاخلاق والشرف ، والسياسة ومســـتقبل البشر ،وفلسفة الكون وتطور الاحياء .

ومهمـــا عظم الانسان وسما ونضج فانه يستطيع ، عنـــدما يتامل غـــرائزه ، ان يقـــول :ما أحقرني ! اى ما احقر هـــذه الغرائز التى اندفع بها الى الطمع والحسد والعـدوان والاقتنـــاء والانغماس والنهم والشر !

ولان الانسان عرف الخســـة التى تنحدر اليها غرائزه وأحس مضض النفس وصداع القلب في المواقف التى اصطدم فيها عقله بغرائزه ، لانه عرف هذه المواقف عمد فى كثير من الاحيـــان الى جحد هذه الغرائز بالزهد والنسك. ومن هنـــا نشات الرهبنة فى بعض الاديان انكارا للغـــريزة الجنسية ولبعض الغرائز الاخرى كالاقتنـــاء والتسلط والحسد والانغماس الخ كأن الغـاية ان نعيش بالتعقل ولو مع الحرمان

ولكن هذا الانحياز نحـــو التعقل وانكار الغرائز لايطيقـــه الا الاقلون . بل يجـوز لنا ان نشك حتى فى هؤلاء « الاقلين » وهل اطاقوا نسكهم وهل استطاعوا انكار غرائزهم أم بقيت هـــذه الغرائز كامنة مختبئة فى أغوار نفوسهم تتحين الفرص لا للثـورة على العقل فقط بل أيضا للتسلل ملتوية منحرفة عن طريقها حتى حملتهم على أن يسلكوا السلوك الشاذ ويتصرفوا التصرف السيىء المخبول ؟

ونحن نعرف من السيكلوجية ان الغريزة وقت التهابها عنـــدما نسميها عاطفة تفور بنا كالماء المغلى وتطلب المنفس والمخرج فاذا لم تجدهما اندست وبقيت بقوتهـا تبحث عن المخارج الضعيفة حتى اذا وجدتها انفجرت فلا يكون منها غير الاذى الفادح لشخصيتنا .

واولئك الذين حبسوا الغريزةالجنسية مثلا لم ينجحوا قط في الغائها ومحوها . وقصاري ماوصلوا اليه عربدة جنسية مختلفة الالوان والاسماء . اوهم قد خدعوا انفسهم من حيث لايدرون فاتجه نشاطهم الجنسي الى الوان قاتمة من السلوك والتصرف تؤذى المجتمع وتفتت شخصياتهم هم . بل ان السيكلوجية الحديثة لتعرف الوانا من الهوس الدينى ترجع فى الاصل والاساس الى الحرمان الجنسى

ولا يطالبنا فن الحياة بكظم العواطف وقمع الغرائز . لاننا لا نستطيع ان ننكر طبيعتنا ، اذ اننا غرائز وعقل . فيجب أن نصالح بينهما اى نهذب غرائزنا ونجعلها ملائمة لقواعد المجتمع الذى نعيش فيه دون قمع او جحد .

وفى اغلب الاحوال ينتهى معنى التهذيب للغرائز الى الاعتدال فلا نسرف فى الانقياد للعاطفة الجنسية ولا نغلو فى الطموح والغيرة والحسد والتسلط . وكلمة «غريزة» من الكلمات الغامضة لاننا نجهل اصلها هل هو طبيعي أم اجتماعى . ولكننا عند ما نتامل نشاطنا الاجتماعى كله ،ذلك النشاط الذى ينظمه العقل، وان كان مرجعه غريزيا ، نجدانه يعود الى ما يشبه ان يكون غريزة واحدة هى شهوة الامن والطمأنينة .

وهذه الشهوة اصيلة فى الطبيعة البشرية وهى التى تدفعنا الى جمع المال واقتناء العقارات والمنقولات والانغماس فى الكسب كما انها هى الاصل فى الغيرة والحسد والطموح والطمع . ونحن نمارس كل هذه الاشياء مدفوعين بالخوف اى الرغبة فى الطمانينة ثم ننساق فى عادات هذا النشاط التى تتملكنا فلا نعرف اين نقف . كتلك البهيمة التى نشدها الى الساقية فتدور وتجرها مكرهة حتى اذا جئنا كى نحل رباطها ونطلقها رفضت واستمرت فى دورتها بقوة الاندفاع الاول .

فهناك مثلا من ينساق لغريزةالخوف ويطلب الطمانينة بجمع المال . وهذا حسن اذا عرف اين يقف ومتى يقنع بمقدار من المال يحقق هذه الطمانينة . ولكن بعيد جدا ان يعرف هذا لانه ، حتى بعد أن يحقق هذه الطمانينةويجمع من المال ما يكفيه هو وعائلته ، ينساق فى عادة الجمع . فلا يكون المال خادمه بل سيده الذى يستبد به ويحمله على الجهداكثر من عماله الذين يخدمونه حتى ليصل الى مكتبه او متجره قبل دخولهم ويخرج بعدخروجهم

وهذا هو شان كثير من الناس الذين يشقون لانهم ينساقون مندفعين بغرائزهم دون ان يسلطوا عقولهم عليها فيعتدلوا وينظموا نشاطهم كى يعيشوا الحياة الفنية المتناسقة . ومن شان الغرائز انها تسرف وتغلو لأن الطبيعة تحرص على بقاءالنوع وقد جهزتنا بهذه الغرائز قبل ان تجهزنا بالعقل وذلك كى تكفل لنا البقاء والتغلب فى ميدان التنازع بين انواع الحيوان وافراده للبقاء. اعتبر مثلا غريزة التناسل . فان رجلا واحدا ، واحدا فقط ، يحمل فى جسمه من الجراثيم المنوية ما يكفى لتلقيح اناث النوع البشرى كله . ونجد مثل هذاالاسراف فى سائر الغرائز . فان غريزة الحيوان تحملنا على الرغبةفى التسلط بامتلاك هذا الكوكب اذا قدرنا . وقد حاول ذلك الاسكندر وتيمورلنك ونابليون وهتلر بل لقد كان الطاغية فاروق يسرق وينهب ويغش ويقامر كى يجمع المال مع ان ما كان يملكه كان من الكثرة بحيث يكفى انسانا مليون سنة ... وحين نشرع فى الاقتناء نتوهم اننا يجب ان نجمع ما يكفينا الف سنة .

وقيمة العقل انه يتسلط على غرائزنا ويحملنا على الاعتدال ولكن بلا زهد أو نسك . اى بلا انكار للغرائز . وقد يكون لقليل من الزهد قيمة فى التذاذ العيش اى فى التأنق فى الاختيار بالامتناع

عن قبول كل ما يرد . كالعطش يجعل الشراب أسوغ والجـوع يجعل الطعـــام امرأ . ولكن الاستمرار عليهما جنون قاتل .

وتقتضينا الحياة الفنية ان نعيش بالعقل والغريزة معا فى مصالحة ووفاق بين الاثنـــين . ولكن فى انحياز نحو العقل لأن العقل انسانى والغريزة حيوانية . ولأن الفرق بين الانسان الانسانى والانسـان الحيوانى هو أن الاول يعتمد فى الاكثر على عقله فى حين يعتمد الثانى فى الاكثر على غرائزه .

كيف نسوس عواطفنا

العواطف قوات انفجارية . وهى تكسبنا الطاقة التى تنبعث بها الى النشاط الذهنى اوالجسمى . ولولا هذه القوة الانفجارية لما تحركنا الى الطموح او الدراسة و الكسب . وهى لذلك جهاز نافع ايام الصحة . ولكنها تستحيل الى قوة معربدة ايام المرض تنطوح بها الى الجنون او الشذوذ او الاجرام .

والعواطف فى مجموعها اجتماعية اى اننا نكسبها من المجتمع وليس من الطبيعة . وصحيح ان هناك عواطف نرثها وراثة طبيعية كالعاطفة الجنسيه أو عاطفة الجوع الى الطعام . ولكن حتى هذه العاطفه « الطبيعية » تتخذ الوانا اجتماعية .

والمجتمع الذى نعيش فيه بما له من طرق فى كسب العيش واساليب الانتاج ، يعين العواطف الشخصية لكل منا . فاذا كنا نعيش فى نظام اقتصادى يقوم على المباراة فان صفات الانانية والغيره والرغبه فى التفوق والاقتناء والطموح تصير عواطف شخصية تحفزنا الى العمل والكسب ، واحيانا تستحيل هذه الصفات الى عواطف سيئة . كالحسد والتسلط والخوف .

وتحدث لنا عواطف اخرى اذا كنا نعيش فى مجتمع تعاونى ليس فيه سيد ومسود وغنى وفقير وكانز ومحروم كما هى الحال فى المجتمعات الاشتراكية

ولاننا نعيش فى مجتمع قائم على المباراة ، فان جميع الرذائل التى تستتبعها المباراة تحدث كلا عاطفيا فى نفوسنا . ولذلك نشقى كثيرا بالانانيه والحسد والرغبة فى التفوق والاقتناء والطموح . ذلك أن الوسط الاقتصادى محدود الفرص . فقد يجد غيرى فرصة لا اجدها انا فيسبقنى ويخلفنى واغار من تقدمه واحسده على ذلك . وكل هذه العواطف تؤذينى او هى تبعثنى على الافراط فى الجهد حتى أموت قبل الاوان بزيادة الضغط للشرايين او بعجز

القلب او بالاختلال فى التمثيل السكرى او قد ابقى مريضا بهذه الامراض وغيرها واشقى بها . وهذا الى هموم لا تنقطع تغشى نفسي بالغم والكآبة وقد تحملنى على الانتحار .

ولذلك نحتاج ، كى نعيش الحياة الفنية فى هناء ، ان نسوس عواطفنا حتى تدفعنا الى السير متئدين ، وحتى لا تكون انفجارية تثور بنا وتبددنا. واول ذلك ان نعرف ، بضمير يقظ وتعقل متزن: اننا نعيش فى مجتمع قائم على المباراة . وانه يحملنا على اتجاهات مؤذية . فيجب ان نجعل القناعة الاقتصادية مصباح الهداية الذى نستضيء به . فلا نتطوح فى مطامع لا نقوى على تحقيقها فنكون لها عبيدا نجرى ونهرول طوال حياتنا كاننا مسخرون فى جمع المال واقتناء العقار .

وليس هنا مقام التحليل لعواطفنا المختلفة حتى تثبت للقارىء انها كلها تقريبا تعود الى مجتمعنا. فان غيرة المراة من حماتها ، او العكس وكذلك مناكدة الرئيس لمرءوسيه ، ثم الاهتمام المريض للمستقبل والتضحية بالحاضر للمستقبل ، ثم الخوف من الفقر والخوف على الاولاد من الاخطار، كل هذه العواطف تعود الى نظام نفسي ينهض على اساس المجتمع الاقتصادى الذى نعيش فيه

وقصارى ما نستطيع ان نبسطه فى هذا الفصل هو نصائح موجزة نبغى بها علاج المجتمع الاقتنائى الذى نعيش فيه . اى علاج الفرد مما نجلبه عليه العواطف التى غرسها فيه المجتمع . اما العلاج الحاسم فهو تغيير المجتمع من المباراة الى التعاون ومن الاقتناء الفردى الى الاقتناء الاجتماعى .

١ ــ من شان العواطف انها لا تؤذينا اذا كانت الكارثة كبيرة فادحة ولكنها مع فداحتها مفردة. اى وقعت مرة واحدة ثم انتهت . فنحن نتحمل الافلاس التام ، او موت الابن او الأم ، او كارثة الغرق او الحريق اوالطلاق . ولكننا لا نتحمل الزوجة تناكدنا كل صباح على الطعام اوالقهوة . وكذلك تتحمل الزوجة معاكسة حماتها . ولا يتحمل الطالب توبيخ ابويه كل يوم لفشله

فى الامتحان . اى اذا تكررت المناكدة او المعاكسة كل يوم ، ولو كانت لأسباب تافهة ، ادت الى الانهيار العصبى الخطير . لأن العبرة بالتكرار .

٢ ـ لهذا السبب يجب الا تعيش الزوجة مع حماتها ابدا . واذا كانت هناك ظروف تضطرهما الى الاشتراك فى العيش فليكن هذا على دراية منهما . اى يجب على كل منهما أن تعرف أنها فى حالة شاذة وأن تحتاط من الوقوع فى المناكدة أو المعاكسة أو المضارة

٣ ـ يجب على الأب ، اذا فشل ابنه او بنته فى الامتحان ، الا يعمد الى تقريعه كل يوم . لأن هذا التقريع قد يؤدى الى انهيار عصبى خطير . وخاصة اذا كان بين ١٧ ، ٢٥ . ومرض الشيزوفرينيا الذى يتفشى كثيرا فى مصر يعود الى كراهة الشبان للدنيا لأنهم حرموا الاستمتاع بها . وقد كان يسمى « مرض المراهقة » لان أكثر اصاباته للشبان فيما بين سن ١٥ وسن ٣٠ . واعظم علاماته الخلوة والصمت والتبلد والسكون . ثم يتطور الى اسوأ .

٥ ـ الاهتمامات الكثيرة المتنوعة تخفف من ضغط العاطفة ، وتحول دون اجترارها .

٦ ـ اذا ثقلت العاطفة فان النشاط الجسمى يخفف من ثقلها . حتى المشى والجرى يخففان من ثقلها .

٧ ـ من الواجب ان ننبه الرؤساء فى المصانع والمكاتب الى ان يكفوا عن معاكسة مرءوسيهم حتى لا يكون أحدهم كالحماة التى تبعث بزوجة ابنها الى المارستان لانها لا تفتأ توبخها وتبخسها .

٨ ـ يجب أن نقلل من مظاهر الحزن مثل احتفال الاربعين للمتوفى أو التفجع فى الجرائد على المتوفين . لأن هذه المظاهر تحيى الحزن القديم عند الغير .

وهذا احسن ما نستطيع ان نقول فى مجتمع المباراة الذى نعيش فيه .

التربية

لا تقل طفولتنا الفطرية عن ١٧سنة٠ ولا تقل طفولتنا الاجتماعية عن ٣٠ سنة ٠ ومعنى هذا أنمدة التربية عندنا طويلة ٠ وذلك اننا لا نولد باجهزة من الغرائزالتامة التىنعمل بها بلا تعليم كما تفعل صغار السمك التى تسبحعندما تخرج من بيضها ولا بأجهزة ناقصة كما تفعل صغار الطيورالتى تحتاج الى شىء قليل من التعليم كى تطير وتجرؤ علىاقتحامالجو ٠

ذلك أننا نحن البشر قداستغنينا عن الكثير من غرائزنا أو قد وضعناها فى الصفوف الخلفيةمن كياننا النفسى وأقمنا العقل وصيا عليها يديرها ويوجهها ٠حتى أننا لا ناكل ولا نتناسل فى استسلام كامل للغرائز اذ أننانسلط العقل هنا أيضا ونجعل له التصرف الأعلى ٠ وصحيح أننالا نستطيع أن نخمد هذه الغرائز ولكننا نستطيع التصرف بهاوتوجيهها ٠

وتسلط العقل يجعل التربيةضرورية لكل فرد منا ٠ وخاصة اذا كنا نعيش فى مجتمع راق اىأرقى وأكثر تركبا من المجتمع الزراعى أو البدوى ٠ وتتجهالتربية فىعصرنا الى ايجاد عادات ومهارات نكسب بها العيش ٠ .وليسمنشك فى قيمة هذهالتربية وخاصة فى مجتمع لا يزال يعيشعلى اقتصاديات القلة وليس على اقتصاديات الوفرة التى يلتمعفجرها الآن فى الأمم المتقدمة فى الانتاج الآلى. ولكن التربية يجبأن تكون للحياة قبل أن تكون للكسب ٠

وكذلك يجب ألا ترمى التربيةالى تعليمنا المعارف والثقافة فحسب وانما يجب أن توجهناالوجهة التى نتعلم بها وحدنا ٠ وكى نوضح قصدنا نطلب الىالقارىء أن يقارن بين أرسطو طاليس وبين تلميذ فى السنةالثالثة أو الرابعة من مدارسنا

الثانوية . فليس من شك أن التلميذ يفضل هذا الفيلسوف في كثير من معارفه الكيماوية والبيولوجية والطبيعية والجغرافية . ولكن ارسطوطاليس كان يمتاز باتجاه معين نحو البشر والكون والمعارف . وهذا الاتجاه يحتاج تلميذنا الى خمسين أو ستين سنة حتى يصل اليه . بل قد لا يصل اليه لأنه لا يجد من يرشده .

وبكلمة أخرى نقول أن ميزة رسطوطاليس كانت منهجية خاصة بالحياة . أما ميزة التلميذ فمعرفية خاصة بالحرفة

ليست التربية السديدة أن أعرف وانما هي أن أعرف كيف أعرف أي كيف أعلم نفسي وأزيد معارفي واكون طالبا مدى حياتي . وليست التربية ان اعرف كيف أكسب العيش بل هي أن أعرف كيف أعيش سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب في نمو لشخصيتي وترقية لذهني . ويجب ألا يكون هدف التربية ، كما هو الآن ، النجاح الحرفي للكسب ، اذ يجب أن تهدف الى النجاح في الحياة . لأن الحياة أكبر من الحرفة والنجاح فيها يقتضى النجاح في الصحة والثقافة والعلاقات الاجتماعية والعائلية والارتقاء الفني والذهني الخ ..

يجب أن تهدف التربية الى أن تحمل كلا منا على الاهتمام بالاثاث الأنيق والرسم الفني كما نهتم للكسب في مجتمع اقتنائي يعيش أفراده بالمباراة . ويجب أن تحرك استطلاعنا الى درس الطاقة الذرية أو زراعة القطن كما تحركه الى تقدير ألوان الجمال في الطبيعة : القمر في الريف والشمس في البزوغ والبحر والقفر والجبل والسهل . لأن هذا الكوكب كوكبنا ويجب أن نستمتع بما فيه من روعة الطبيعة ومجدها .

والحياة الفنية تحتاج قبل كل شيء الى درس الفنون والى ترقية الاحساس الفني بحيث نسلك ونتصرف ولنا في كل ذلك مارب

فنى . حتى اذا سرنا فى حديقة استمتعنا بالزهور وهى على شجرتها فى اشراقها وايناعها دون أن يبعثنا روح الاقتناء على بترها وقطفها أى قتلها .

ويجب أن نتعود قراءة الجريدة والمجلة والكتاب كما نتعود القهوة والشاى

ويجب أن نزداد رغبة فى امتلاك هذا الكوكب نفسيا وذهنيا وفنيا كلما ازداد هو تقلصا بالمخترعات الجديدة حتى تتسع آفاقنا ، حسا وذهنا ، فلا تضيق بحدود القطر أو القارة بل تشمل شئون العالم كله والبشر جيمعهم

ثم يجب الا يغيب عنا أن التربية البشرية تخاطب الذهن أى تزيد التعقل حتى نعيش فى يقظة ونطلب زيادة هذه اليقظة بتعلم المعارف والفنون . فلا نعيش ذاهلين ذهول الحيوان الذى تسوقه غرائزه . والفرق كبير بين الذهن اليقظ والذهن الذاهل وهو يعود فى الاغلب الى عادة القراءة . وكذلك الفرق بين شيخ هرم قد خرف أو تبلد ذهنه ، وبين شيخ لا يزال لذهنه حدة وفتوة ويقظة وذكاء، يعود الى ان الاول لم يتعود القراءة، وان الثانى قد تعودها . والقراءة تجعل الكلمات مالوفة فى الذاكرة سهلة الاستحضار . ولما كانت المعانى مجسمة فى كلمات فان من البعيد جدا أن نجد رجلا يهرم ويتبلد ذهنه ما دامت الكلمات حاضرة معدة لتنبيهه . لأن الكلمات افكار .

ومن هنا القيمة العظمى لصحة الشيخوخة من تعود القراءة لان الذهن يمرن على الفهم بالقراءة كما يمرن الجسم على الحركة بالرياضة وتبقى هذه المرانة الى الشيخوخة .

كذلك يجب أن تكون تربيتنا موسوعية شاملة كلية . أى يجب أن نلم بجميع المعارف البشرية . وصحيح أنه يجب أن تكون لنا

بؤرة اى نقطة للتعمق والتخصص فى المعارف . ولكن يجب أن نتشعع من هذه البؤرة العميقة الى التوسع فى الآفاق الذهنية الرحبة . كما يجب أن يكون كل منا سقراطيا . اى يعرف أنه لا يعرف . فيدرس العلوم والفنون والآداب والفلسفات ويبقى على هذا حتى يموت « وعلى صدره كتاب » كما قيل عن الجاحظ .

وفى المستقبل القريب ، بل القريب جدا ، ستتغير التربية من التعليم للحرفة الى التعليم للحياة . وعندئذ نتجه نحو استخدام فراغنا الذى سيزيد عاما بعد آخر . وكثير منا حتى فى عصرنا هذا يستمتعون بفراغ يبلغ أربع أو خمس ساعات كل يوم . وعندئذ ستكون مشكلة التربية : كيف يتصرف الشاب أو الفتاة بهذا الفراغ وكيف ينتفع به ويستمتع ؟

وهذا السؤال يعود بنا الى النغمة التى نفتا نعزفها وهى أننا يجب أن نعلم الناس كيف يعيشون الحياة المليئة وكيف يتعمقون فى حياتهم ويتوسعون ولا يقنعون منها بالعيش على سطحها أو هامشها ، نعلمهم أن غاية التربية أن يحيوا وليس أن يحترفوا . ونحرك فيهم العقل الاستطلاعى التساؤلى اليقظ الذى يشتهى المعارف ويعرف أيضا أين يبحث عنها ويجدها ، ونعلمهم أن هدف الحياة : هو الحياة نفسها فى تعمق وتأنق ، وليس هو الحرفة أو المال أو التفوق .

وأخيرا نقول ان التربية الحقيقية هى التربية الذاتية . فلا ييأس أحد لأنه لم يمتز بتعليم جامعى أو لان ظروف حياته الماضية لم تهيىء له الفرص للدراسة ، لأنه يستطيع أن يشرع فى أى وقت وأن يضع البرنامج الدراسى الذى تحتاج اليه تربيته وهو أقدر انسان على وضع هذا البرنامج اذ هو الوحيد الذى يعرف حاجاته وكفاءاته .

قيم جديدة فى التربية

كثيرا ما اتأمل وأقارن بين الحكمة والمعرفة نستخرجهما من الخبرة بالدنيا والمجتمع ، اونستخرجهما من الكتب والدراسة

تأمل شابا حصل على الشهادة التوجيهية ثم التحق باحدى الكليات فى الجامعه . ودرس عاما كاملا ، علما اوفنا كالهندسة أو الزراعة أو الادب او الفلسفة . ثم قارن هذا الشاب بزميل له قد حصل على الشهادة التوجيهية ولكنه أمضى هذا العام فى تجارة أو حرفة ما بحيث اضطرته الظروف الى الكسب او الخسارة والى الإختلاط بالجمهور يؤدى الخدمات المختلفة لافراده سواء أكانت هذه الخدمات فى مكتب أم فى متجرام فى مصنع

تأمل هذين الاثنين آخر العام، قارن بينهما ، ثم قل ايهما اكثر حكمة ومعرفة ، ذلك الذى قضى عاما فى الجامعة ام الآخر الذى قضى هذا العام فى المجتمع ؟

الذى لا شك فيه أن هذا الثانى أكثر حكمة ومعرفة .

الاول قد عرف الكيمياء اوالمبادىء الهزيلة للفلسفة أو القليل من النبات أو الحيوان اوالهندسة الميكانية . اما الثانى فقد عرف الناس والبواعث البشرية للسرور او الغضب ، وللامانة أو الغش، وللطمع او الرضى . وفهم معانى النجاح وعلل الخيبة

الاول علمته الجامعة علما أوفنا أما الثانى فقد رباه المجتمع وفتح قلبه وعقله لمعانى الحياة

***

الحياة ، المجتمع ، الاستقلال الشخصى ، الهدف

كل هذه الاشياء لا تستطيع المدرسة أو الجامعة ان تعلمنا اياها وهى تتركها لنا بعد ان نتخرج ونشرع فى درسها .

ولكن الامريكيين عرفوا هذا النقص فى المدرسة والجامعة . ولذلك عودوا ابناءهم الكسب والعمل مدة الدراسة . حتى أن

طالب الجامعة في الولايات المتحدة يكاد يخجل من ابيه أو امه اذا احتاج الى سؤالهما لمساعدته ، اذ هو يعمل في المدينة الجامعية التي يقيم فيها . يعمل اى شيء، ولا يحتقر عملا ما دام شريفا لا يمس ضميره .

يعمل جرسونا في مطعم أو مقهى . ويعمل منظفا للمتاجر او بائعا فيها. وقل ان تجد مكتبة او مطعما أو مصنعا في نيويورك او غيرها الا وتجد بين عمالها طلبة من الجامعة يعملون ساعة أو ساعتين في النهار أو الليل يكسبون منهما ما يكفيهم للانفاق على تعليمهم

وهذا العمل الكاسب يكسبهم استقلالهم ، وهم بعد في العشرين من العمر او حواليها ، كما يبصرهم بشئون المجتمع اذ يلتقون بأفراده المختلفين . ويتعرفون الى اخلاق جديدة ، ويسمعون آراء غريبة، لم يكونوا ليعرفوها او يسمعوها لو انهم كانوا قد قنعوا بمحاضرات الجامعة ومذاكرة الدروس

ويتعلمون فوق ذلك القيم الروحية للانسان المتمدن . . واعظمها قدرا ان الذى يستهلك طعاما او لباسا او سكنى او خدمة يجب ان ينتج مثل هذه الاشياء وان الرجل الصالح هو ذلك الذى ينتج لمجتمعه اكثر مما يستهلك . وهذا هو مقياس الصلاح في عصرنا .

ويتعلمون أخيرا أنه ليس هناك ما يحتقر من الاعمال . فليست فلاحة الارض أو كنس الشوارع أو بيع البقول مما يحتقر ، لانه ما دام المجتمع يحتاج اليها فلا يمكن أن تكون حقيرة

قبل نحو ربع قرن هبط القاهرة أكثر من مائتين من الطلبه الامريكيين الذين كانوا يطوفون العالم وينزلون في مدنه ويتعرفون الى شعوبه . وكانت هذه السياحة جزءا من تعليمهم ومحاولة امريكية بديعة لجعل التعليم عمليا اجتماعيا بقدر المستطاع .

واستدعتني الادارة المشرفة على هؤلاء الطلبة ، أنا والآنسة مي،

كى نتولى الاجابة على الاسئلة التى يسألها هؤلاء الطلبة والتقينا فى قاعة كبيرة فى فندق شبرد

وهناك صار الطلبة يسألوننا أسئلة عميقة عن تاريخنا وحكومتنا واقتصادياتنا وعن أحوال المرأة والعامل ويدونون الاجابات ، وعرقت ولهثت ورأيت مى تعرق وتلهث .

وكان أحد الطلبة قد سألنى: هل يجد طلبتنا أعمالا حسنة يكسبون منها فى القاهرة مدة دراستهم ؟

فاستنكرت السؤال لاول وهلة . ثم شرح السائل لى أحوال الطلبة فى أمريكا وانهم كلهم يعملون ويكسبون . فلما فهمت موقفه ، أخبرته بأن مثل هذه الحال لايمكن أن توجد فى القاهرة لان أجور العمال عندنا منخفضة جدا .

وخرجت من الفندق ، وأنا أحس أنى قد انتفعت كثيرا ، وقد فهمت أشياء جديدة عن التعليم الجامعى فى أمريكا . فانه ليس تعليما . اذ هو تربية .

***

وكثيرا ما أقارن بين طالب جامعى فى مصر يعطى بعض الدروس لتلاميذ المدارس الابتدائية أو الثانوية ويكسب منها مقدارا من المال ينتفع به فى عيشه وتعلمه، وبين آخر لا يفعل هذا . فأجد عند المقارنة أن الاول قد حذق شيئا من العادات الاجتماعية التى لا يعرفها او لا يحسنها الثانى ، كما أنه قد تكونت له شخصية لم تتكون للثانى .

وأحيانا أجد مثل هذه الحال فى طالب جامعى قد التحق باحدى الصحف ، فانه قد يكسب منها قليلا من المال . ولكنه يكسب كثيرا فى تكوين شخصيته وتعيين هدفه وتربية ضميره . هذا الضمير الذى يجب ان نربيه على احترام العمل والخدمة قبل احترام الدرس والشهادة

واحيانا يخطر فى بالى ، لهذا السبب ، أن أقترح على وزارة المعارف أن تمنع التحاق الطلبة بالجامعة عقب حصولهم على الشهادة التوجيهية الا بعد أن يقضوا سنة فى الخدمة ، أية خدمة . وذلك كى نغرس فيهم الاحساس بان الولاء للشرف والوطنية والانسانية يقتضى الخدمة والانتاج ، وان الدراسة ليست ترفا أو متعة ، وانما هى تأهيل للخدمة والانتاج

وهذه السنة التى أقترحها للعمل، تربى ضميرهم وتعوضهم من تلك الفرصة الامريكية التى تتيح للطالب أن يدرس ويعمل فى وقت معا ، اى يتعلم ويتربى فى وقت معا

أجل علينا أن نعلم الطلبة طرازا جديدا من صلاح النفس بأن نقول لهم : يجب أن تحسوا عندما تموتون بعد العمر الطويل ، أنكم قد أنتجتم لأمتكم أكثر مما استهلكتم . وأن الأمة أثرت بحياتكم ثراء ماديا أو روحيا ، وأنها صارت بحياتكم أفضل مما كانت قبل ميلادكم .

يجب ان تعرفوا ان الرجل الصالح ليس هو ذلك الذى يصلى فى الليل والنهار ويقنع بذلك . وليس هو ذلك الجاهل الذى يسير خلف الجنازات ، وليس هو ذلك المحسن على الفقراء ، بل ليس هو ذلك الاب الذى يقنع بحب زوجته وتربية ابنائه ، لا انما هو قبل كل شيء ذلك الذى يعطى المجتمع اكثر مما يأخذ منه ، اى ينتج اكثر مما يستهلك .

والمرأة الصالحة ليست هى ربة البيت فقط . وليست هى الأم فقط . وليست هى التى تعنى بزوجها وابنائها فقط . وانما هى تلك التى تعلمت حرفة وأحسنت عملا اجتماعيا ، وعملت وكسبت ، واصابت واخطأت . ثم انتجت أكثر مما استهلكت حتى أثرى المجتمع بحياتها . ومع ذلك لا ننسى أن

ولادة الابناء انتاج عظيم . ويكون هذا الانتاج اعظم اذا كان هؤلاء الابناء على صحة في الجسم وسلامة في النفس موروثين من الأبوين ثم على تربية قد اكتسبوها عن القدوة بأبويهم ومن العيش في عائلة متمدنة وبيت حر .

***

أسوأ الناس هو ذلك الكاتب او المؤلف الذي ينكب على الورق والحبر والقلم لا يعرف غيرها . فانه شخصية انسانية هزيلة . اكاد أحس وأنا أتخيله أو أتأمله آن الذي يجري في عروقه ليس دما أحمر حيا تمرح فيه الخلايا الحمر ، وانما هو حبر اسود ميت مر عفص .

ذلك أننا يجب أن نكتب كي نحيا ، ونحيا كي نكتب . واذن يجب أن نختلط بالمجتمع ، نشتغل بالسياسة العالمية ونكافح من أجل المبادئ الاجتماعية ، ونحب جمال المرأة وبهجة الزهر ونضرة الحقل ونقتني الكلب والجواد ، ونعانق الطبيعة في السر الحميم على خلوة بها في حلكة الليل ، نتأمل نجومها ، ونحاول اقتحام غيبياتها كما نختلي الى شجرة التوت المنعزلة في النهار . نقعد تحت قبة من اوراقها الخضراء نتأمل ونفكر الافكار الخضراء

كما نحب الادب والفن ونبحث العلوم والفلسفات والاديان ونقف متلبثين عند وصف التوراة للخمر على لسان يعقوب بانها «دماء الاعناب » او قول دستوروفسكي بانه يؤثر ان يكون مع المسيح على أن يكون مع الحق .

***

ويجب أن نشتغل بالسوق والبورصة والمصنع والمزرعة ، نسأل عن نظمها وأجور العمال فيها ومساكنهم وثقافتهم . لان هذه الشئون جميعها هي المجتمع الذي نعيش فيه والذي لا يجوز لنا ان نكتب شيئا عنه ما لم نكن قد درسناه واختبرناه .

بل كذلك يجب أن نسيح في الاقطار الاخرى كي نرى ونقارن بين عاداتنا ونظمنا وبين عادات الشعوب الاخرى ونظمها . حتى تتكون لنا من ذلك بصيرة مضيئة ترشدنا الى فضائلنا فنستمسك بها ، أو تعين لنا رذائلنا فنكف عنها .

وهذه الدراسة لشئون المجتمع، وهذه السياحات في الاقطار الاجنبية ، هي بمثابة التدريب العملي الذي يجده الطالب الامريكي مدة تعلمه في الجامعة . تدريب للكاتب والاديب كي يحسنا الكتابة عن المجتمع ، الذي يجب أن يكون على الدوام موضوع الادب أو الصحافة

نحن نعيش فى المجتمع المتمدن بدستور أخلاقى نأخذه كله أو ٩٩ فى المئة منه من العائلة التى نشأنا فيها والشارع الذى مارسنا فيه اختبارات الطفولة ومن زملاء المدرسة والحرفة ومن غير هؤلاء ممن تحملنا حياتنا الحرفية أو الاجتماعية أو السياسية على الاحتكاك بهم. ونحن نزن الرذائل والفضائل بميزان هذا المجتمع ونأخذ بالقيم التى يعينها لنا .

وكثيرا ما نأخذ بقيم وأوزان فاسدة لان المجتمع الذى نعيش فيه فاسد. وكثيرا ما يخفى علينا هذا الفساد فنندفع فى التيار لا نقف ولا نتردد . ولكن أحيانا نقف ونتردد . وعندئذ يكون التقلقل النافع والبحث والتجديد المربيين . ثم تكون قيم وأوزان جديدة

والقيم والاوزان اما أن تكون اجتماعية واما أن تكون بشرية . واذا كان المجتمع راقيا كانت كل أو معظم أوزانه بشرية . ومثال الاوزان البشرية استنكار القتل والفقر والمرض والجهل والتعصب وصيانة الصحة ومكافحة المرض. وتنوير الذهن بالمعارف وتوزيع الثروة بحيث لا يكون فقر مؤذولا ثراء مبطر . ومثال الاوزان والقيم الاجتماعية التزين واقتناء القصور والضياع والجواهر والتفاخر بالولائم وأبهة العرس أو المأتم والالقاب ونحو ذلك .

وكى نزيد الايضاح نفرض أن صديقا مات وترك زوجته وجملة أولاد . فالرجل الذى تغلب عليه الاوزان والقيم الاجتماعية سيحضر المأتم ويسير خلف الجنازة ويحضر الصلاة ويعزى أسرة المتوفى ثم يعد نفسه قد أنجز جميع واجباته. وربما قد يبالغ فى هذه الواجبات فينعاه فى الجرائد . ولكن الرجل الذى تغلب عليه الاوزان والقيم البشرية قد يهمل كل هذه الواجبات ثم يبحث عن حال الارملة وأولادها. فاذا وجد انهم فى حاجة الى المال تبرع من جيبه وجمع من

غيرهما بقيتها . ثم هو يرعى الاولاد بالنصيحة ويهيىء لهم وسائل التعليم ويرعى العائلة تلك الرعاية الاقتصادية التى فقدتها بموت العائل .

ومن هنا نعرف أن الضمير الحسن هو الضمير البشرى وليس هو الضمير الاجتماعى .

ومن هذا المثال الذى ذكرنا ، نستطيع أن نتوسع فنقول :

ان للصحة قيمة بشرية مطلقة . ولكن للمال ، بعد أن يتجاوز حدا ما ، قيمة اجتماعية فقط . والشاب الذى ينشد فى الفتاة جمالها انما ينشد قيمة بشرية ولكنه عندما ينشد ثراءها انما ينشد قيمة اجتماعية . ومن هنا ايضا نقول ان للزواج قيمة بشرية ولكن أبهة العرس وجهاز العروس ومكانة ابيها ونحو ذلك تعد من القيم الاجتماعية .

وكثيرا ما تستهلك القيم والاوزان الاجتماعية مجهودنا وصحتنا كما تحول بيننا وبين القيم البشرية . كأن نندفع فى جمع المال فنفقد صحتنا قبل الخمسين أو الستين لان المجهود فى هذا الجمع كان أكبر مما نتحمل . وفى الوقت نفسه ربما حال هذا الجمع دون العناية بترقية شخصيتنا وتنوير ذهننا ، وهما من القيم البشرية . وكثير من الناس يغمرهم المجتمع بقيمه وأوزانه فلا يرتفعون فوقها . ولذلك تجد أن كل اهتمامهم ينحصر فى شراء سيارة من الطراز الجديد أو يغمرهم الهم والنكد لانهم فقدوا صفقة تجارية . مع أن زيادة ألف جنيه او نقصها فى حساب البنك لن يضيرهم ولن يزيد سعادتهم أو ينقصها

ومن هنا ذلك الرجل المحموم بالنجاح ينفق كل مصادره الحيوية فى التفوق فى حرفته . ثم يفشل فى عائلته أو مجتمعه ولا يدرى أن النجاح كان يجب أن يكون كليا يشمل العائلة والمجتمع والحرفة

والفراغ . وكثير من الامراض النفسية الفاشية فى أيامنا تعزى الى الاندفاع فى هذه القيم الاجتماعية دون التفكير فى القيم البشرية. وذلك ، الرجل الاجوف ، الذى تحدث عنه الشاعر اليوت انما هو رجل قد غمره المجتمع بقيمه وأوزانه فنسى كلمة الامبراطور ماركوس أوريليوس حين قال ان أعظم ما يشتاق اليه ويتمناه فى هذه الدنيا كسرة من الخبز مع قطعة من الجبن يأكلها تحت ظل شجرة .

والمحك الذى يفصل بين القيمتين والوزنين أن نسأل ، عند ما نسأل، عن شخص ما : ما هو ؟

فاننا هنا نسأل عن قيمته البشرية . هل هو جميل ، سليم، مثقف ، صادق ، أمين ، سعيد ؟

وحين نسأل عن قيمته الاجتماعية نقول : ما عنده ؟

فنجيب بأن عنده منزلا به أثاث فاخر أوعنده ضيعة ، وسيارة وعشرة آلاف جنيه فى البنك ولقب بك الخ .

والحياة الفنية تقتضينا التمييز بين القيم وأن نجعل للقيمة البشرية المكانة الاولى فى جميع اعتبراتنا سواء فى أنفسنا أم فى غيرنا . والرجل الطيب هو فى النهاية الرجل البشرى وليس هو الرجل الاجتماعى . أى هو الرجل الذى يتعمق ويصل الى الجذور

وعند ما نتأمل الانبياء بل كذلك الفلاسفة والادباء ، نجد أن كل اهتمامهم كان منصرفا الى تغيير المجتمع بوضع القيم البشرية مكان القيم الاجتماعية .

الاستغناء أم الاقتناء

نحن نعيش فى مجتمع « اقتنائى » ننشأ فيه منذ الطفولة على أن هذا لى وهذا لك . وعلى أن أحدنا يسر بان يكون له أكثر مما للآخر . ثم نشب بعد ذلك فنزداد رغبة فى الاقتناء واندفاعا نحو الامتلاك ، لأن العادة قد أصبحت عاطفة ومزاجا . ونعيش طوال حياتنا ونحن فى تعب ، لأننا لم نقتن كما اقتنى فلان الذى كنا نعرفه أقل ثروة منا . ونعيش بين جيراننا فى مباراة نرقبهم حين تخرج احدى بناتهم فى ثوب زاه ، أو حين نقرأ فى الصحف عن الترقيات والعلاوات، فنمتلىء حسدا لان هذا الشخص الذى كنا على الدوام نتفوق عليه أو على الاقل نساويه قد ارتفع وارتقت أحواله دوننا .

ونحن ننشد الاقتناء والامتلاك لا لأننا فى حاجة الى زيادة ولكن لان المجتمع « الاقتنائى » الذى نعيش فيه قد غرس فينا هذه العواطف . فاكسبنا هموما شخصية تنزع بنا الى الجهد وتحمل المتاعب كى نتفوق فى الجمع ونستمر فى الزيادة . ونبقى على ذلك طوال حياتنا ، حتى أننا نرى ناسا قد تقدمت بهم السن وأثقلتهم الشيخوخة ومع ذلك يتعبون ويقلقون بشأن مقتنياتهم وعقاراتهم . فهم فى هموم دائمة وحسابات لا تنقطع، حتى ليتساءل الانسان وهم فى هذه الحال : هل هم يملكون هذه العقارات أم أن هذه العقارات هى التى تملكهم ؟

واعظم ما يعود من الضرر على هؤلاء ، أن هذه الهموم الشخصية تحول دون الاهتمامات العامة حتى ليقول لك أحدهم أنه لا يملك الوقت كى يقرأ الجريدة ، لأنه مشغول بأعماله التى لا تترك له فراغا .

وقد أصبحت اعباؤنا الخاصة ثقيلة حتى أننا جعلنا الفرار منها سنة . فنحن نصطاف ، لا لأننا نرغب فى تغيير الجو من الحر الى

البرودة ، بل لاننا نحب أن نفرمن هذه الاعباء . فالتغير هنا نفسي وليس مناخيا . وعندمانتأمل المصطافين في رأس البر أو الاسكندرية، نجد أنهم ينطلقون من القيود ويحاولون أن يتصلوا بالطبيعة في بساطة من التكاليف والاعباء تشهد على أنهم كانوا متعبين بماكانوا يقتنون من ملابس غالية مرهقة في المدن .

والحق أننا عند ما نتأمل معيشتنا في وسط متمدن ، وما يجلبه علينا هذا الوسط من تكاليف، وما يطالبنا به من مطامع، نجد أننا جميعا في حال سيئة من القلق النفسي ، مسوقين بأوهام الاقتناء كما لو كنا مسخرين .وهذه الاوهام هي في نهايتها مصطلحات أي عادات ليست لهاقيمة بشرية ، وهي لا تزيدنا الا أعباء وهموما اذ نستطيع أن نستغني عنها . فقد استغنى شبابنا مدة الحرب الاخير مثلا عن الطربوش ، ولم يجدوا سوى الراحة والصحة عند ما تخلصوا من هذا التكليف . وسبق أن استغنت الفتيات أيضا ، قبل الحرب ، عن الجوارب ولم يشعرن الا بالراحة والزيادة في الصحة بهذا الاستغناء . أجل .. ازداد الجميع صحة لان الاستغناء عن الطربوش والجوارب ، قد زاد في تعرض الاعضاء لأشعة الشمس ولاثرها الصحي في تنبيه الجسم

وأعود فأقول ان معظم ما نبذل من مجهودات عظيمة ، بل أحيانا مجهودات مضنية مميتة ، في الاندفاع نحو الاقتناء انما هو مصطلحات وعادات اجتماعية لاأكثر ، أي ليس لها في نفوسنا حاجة طبيعية . فحاجاتنا الطبيعية قليلة جدا . وقد قنع غاندي مثلا بأن يعيش بنحو ثلاثة جنيهات أوأربعة في العام كله . فقد كان يكتفي من اللباس بقطعة من القماش غير مخيطة يتلفع بها ، بينما يحتاج اصغرنا الى عشرقطع كي يغطي بها جسمه كأنهاضمادات الجريح ، أو كأنها خرق ملونة لمهرج على مسرح !

واذا كنا نحن نستبعد أونستغرب معيشة غاندى ، فليس ذلك لأن غاندى مخطىء ، بل لاننا نعيش فى أسر مصطلحات وعادات اجتماعية قد تغلغلت فى نفوسنا حتى أضحت عقائد وعواطف

والرجل الحكيم هو الذى يعرف كيف يستغنى دون أن تنقص حاجاته الضرورية . ومن هنا قيمة الدعوة الى الحياة البسيطة ، أى الى بساطة العيش . وهذه الدعوة هى نداء قديم يتردد صداه عبر التاريخ منذ آلاف السنين . وكلنا نذكر « ديوجينيس » الاغريقى حين وصف الاسكندر بأنه كان شقيا بما جلب على نفسه حين سأله عما يستطيع ان يؤديه له من مساعدة . فأجاب بأن كل ما يطلبه انما هو أن يتنحى عنه حتى لا يمنع أشعة الشمس عن جسمه . ونحن نقرأ هذه النادرة كأنها نكتة . ولكن لماذا ؟ أليس أمامنا البرهان على أن ديوجينيس كان على حق ؟ وكان سعيدا ببرميله الذى كان ينام فيه ، فى حين كان الاسكندر شقيا بما جلب على نفسه من هموم وأعباء ؟ ألم يعمد الاسكندر الى الانتحار وهو فى الثلاثين ؟ فأى شقاء أكبر من هذا ؟

كان الاسكندر يندفع بروح الاقتناء الى الفتح والحرب . وكان ديوجينيس يندفع بروح الاستغناء الى العيش فى برميل . وكلاهما مسرف . . . ولكن اسراف ديوجينيس أقرب الى الحكمة من اسراف الاسكندر .

وغاندى فى عصرنا يجرى على مذهب الفيلسوف الاغريقى ويجحد مذهب الفاتح المقدونى ، وهو حكيم فى هذا السلوك .

وقد كان جان جاك روسو أول من بصر بعبء التكاليف المرهقة التى تفرضها علينا الحضارة . برغم أن حضارة العصر الذى كان يعيش فيه ، هى البساطة والسذاجة بالمقارنة الى ما نعيش نحن

فيه . فقد دعا هو دعوة الريف وتجنب المدينة . ولكن مدينته، حوالى سنة ١٧٧٠ ، كانت قرية هادئة بالمقارنة الى المدن التى نعيش فيها الآن . فلم يكن فى مدينته ترام أو سيارة أو راديو، ولم تكن مضار المباراة وما تجلب من حسد وهزيمة وقلق جزءا من مائة مما يكابد أبناء المدن فى هذه الايام ، وقد ترك بعده « ثورو » الامريكى المدينة الامريكية وعاش فى الغابة . وترك ادوارد كاربنتر المدينة الانجليزية وعاش فى الريف . وفعل كذلك تولستوى وغاندى .

وليس هؤلاء شاذين ، لأننا حين نقارن بين حياتنا وحياتهم من حيث القيم البشرية وسلام النفس والفراغ للتأمل والراحة نجد أن الحكمة كانت فى جانبهم والجنون أو الحماقة فى جانبنا

فقد عاشوا بالاستغناء ، فى حين نعيش نحن بالاقتناء . وامتازوا بأنهم نفضوا عن نفوسهم وأجسامهم وضمائرهم جبالا من الواجبات والاثقال التى تنوء بها ونزعم اننا بفضلها سعداء مع ان الحقيقة أننا مسخرون فى الجمع والاقتناء ، ثم فى زيادة الجمع والاقتناء . وسنظل على هذا حتى نموت بالنقطة أو السكتة مجهودين مرهقين .

وأسوأ ما فى هذه الحياة التى نعيشها ونحن نعدو وراء المطامع وكأننا نجرى فى سباق ، أننا لا نعرف ماذا نقتنى ولمن نقتنى ؟ ثم هذا العدو فى هذا السباق لا يتيح لنا فرصة الوقوف كى نتأمل ونفكر . والواقع أن غريزة الاقتناء تدفعنا مسخرين فلا يلتمع لنا ذكاء ولا يتردد فى رؤوسنا خاطر ولا نتساءل : لماذا كل هذا ؟

نعيش لنحسب أم نعيش لنحيى

غاية الحياة هى الحياة. وليست غايتها أن نكون أثرياء أو أصحاء أو علماء أو سعداء . لأننا اذا كنا نطلب الثراء أو الصحة أو العلم أو السعادة فانما لأن كل واحد من هذه الاشياء يؤدى فى النهاية الى الحياة المثلى التى نتمناها .

فيجب لهذا السبب ألا نخطىء الهدف . وهو أن نحيا لاجل الحياة . واذا نحن جعلنا هذا الهدف نصب عقولنا فاننا لن ننحرف . اذ نجد أنه على الدوام يصحح ويقوم انحرافاتنا .

وأعظم ما نقع فيه من انحراف بل اعوجاج هو أن المجتمع يؤثر فينا بأوزانه وقيمه فيحملنا على أن ننسى أن هدف الحياة هو الحياة . حتى أننا نجد كثرة الناس ، بل ربما كلهم ، أى كلنا ، ننتهى الى عادات فكرية ونفسيه لو أنها امتحنت فى نزاهة وذكاء لكانت اقرب الى الجنون والشذوذ منها الى التعقل السوى .

وأسوأ هذه العادات ، عند الطبقة المتوسطة والثرية ، هى أن نحيل الحياة الى حساب . ذلك أن أحدنا ينسى أنه يجب أن يعيش فيستمتع بحياته ذكاء وصحة واجتماعا ومعرفة وحكمة . ينسى كل هذا ثم يرصد وقته وجهده فى الحساب . ما هى زيادة دخله هذا العام على دخله فى العام السابق ؟ وماذا يستطيع أن يشترى بما ادخر مما يزيد هذا الدخل ؟ الخ

وأحيانا تستحيل هذه العادة الى جنون . فلا يشتغل الرأس الا بها ولا يتحرك النشاط الا لأجلها . حتى أننا لنرثى لصاحبها اذ نجد أنه أسير قد استرقه الجمع والاقتناء فلا يعرف لذة الطعام أو الشراب أو التنزه أو الاجتماع بالاصدقاء . وقد يسأل أحدنا عند ما يتأمل هذه الشخصية ويقارنها بشخصية أخرى كثيرا ما يحتقرها مثل شخصية المستهتر فى الشراب أو النساء : أيهما أفضل ؟

وليس هـذا السؤال لان الاستهتار حسن . ولكن لان قصر الحياة على الحساب بالجمع والطرح والزيادة والنقصان فى الاقتنـــاء أسوأ من اى استهتار . لان اقل ما يقال فى المقارنة هنا ان المستهتر مستمتع ولكنه مبالغ مسرف فى الاستمتاع الى حد الضرر . ولكن هذا الحاسب لا يستمتع بتاتا الا كما يستمتع النيوروزى أى المريض النفسى بعادة تملكته واستبدت به وهى بعيدة عن العقل بل متمردة عليه .

ونحن فى عصرنا الحاضر نحتاج الى كاتب مثل د.هـ. لورنس كى يبين لنا أن واجبنا الاول فى الدنيا هو أن نعيش . فقد الف هـذا الكاتب قصة « عاشق الليدى شاترلى » وأسرف فى دعـــوته الى الاستمتاع الجنسى باعتبار أنه أهم من الاعتبارات الاجتمـاعية التى تنكر علينا ملذاتنا وتشغلنا بالوان أخرى من النشاط الذى ننحرف ونزيغ به عن هدف الحياة وهو ان نحيا ونستمتع . وليس شك انه أسرف بل انه وقع فيما اراد أن يحذرنا منه . اذ هو جعـــل الاستهتار الجنسى هدفا ، وكأنه اعتقد أن اللذة الجنسية هى كل ما فى الحياة . وهذا خطأ فاضح .

وصحيح أن الاستهتار الجنسى، فى القيم والاوزان الصحيحة ، خير من قضاء العمر فى الحساب لاقتناء المـــال وزيادته . ولكن الاستهتار على كل حال اسراف . ثم ان اللذة الجنسيـة جـــزء من الحياة وليست الحياة جزءا من اللذة الجنسية . فاذا نحن تحرينـــا الحياة المثلى فاننا بلا شك لا نهمل الملذات الجنسية ولكننا أيضا نضع هذه الملذات فى مكانها فلا تتجاوزه وتطغى على حياتنا كلها . اذ أن هناك ملذات أخرى تحتاج اليهـا الحياة المليئة الحافلة السامية مثل الصحة والمعرفة والصداقة والذكاء والحكمة .

واسراف لورنس فى الاكبار من شأن اللذة الجنسية انما هو مبالغة

يرمى بها الى تأكيد الظاهرة الجنونية الحاضرة فى اندفاع الناس الى جمع المال وقضاء العمر فى الحساب. حتى أننا لنجد رجلا فى الستين أو فى السبعين ليس له من هم سوى الدفاتر يراجعها ، والاهتمام بدخله والتفكير فى شراء عقار جديد ، أو نحو ذلك . مع أن كل ما بقى له من العمر قد لا يتجاوز سنة أو سنتين هو أحوج فيهما الى أن يعرف ما جهل أو بعض ما جهل قبل أن يغادر هذه الدنيا .

عرفت سيدة كانت طريحة الفراش يعرف قلبها دقات الموت قبل وقوعه بخمسة أيام . ومع ذلك كانت تتقلب فى قلق لأن حساب المهندس الذى وكلت اليه بناء منزل لها لم يطابق حسابها. وبدلا من أن تودع الدنيا فى تأمل وفلسفة كانت لذلك تودعها فى حساب القرش والمليم ..

ووطأة المجتمع علينا هى التى تسوقنا الى أن نستبدل الحساب بالحياة . والى أن نسخر أنفسنا للجمع والاقتناء دون الاستمتاع بالعيش . وعادات المجتمع هذه ترسخ فى نفوسنا بحيث نعيش فى هذا الحساب كما لو كنا نملا أو جرادا ننشط نشاطا غريزيا لا نعرف غايته .

والرجل الذى ارتفع الى أن صار يجعل من حياته فنا يجب من وقت لآخر أن يسأل نفسه : هل أنا أعيش للحياة أم أن قيم المجتمع وأوزانه قد غمرتنى وسخرتنى حتى صرت آلة جمع وطرح للحساب أى لزيادة المال والدخل فقط ؟

ويجب على كل منا أن يذكر نصيحة المسيح لنا وهى أن نعيش كالاطفال أى أن ننزل على القيم البشرية الساذجة نحب الجمال والاقتحام ونستطلع الدنيا كما يستطلعها الطفل . وهو الذى أخبرنا بأن زهور الحقول أجمل مما اقتناه قصر سليمان الحكيم .

العمل والفراغ

كى يكون نجاحنا فى الحياة كليا شاملا وليس جزئيا خاصا يجب أن نواجه ونحل أربع مشكلات أصلية هى :

١ ـ مشكلة العمل الذى نرتزق به .
٢ ـ مشكلة الفراغ الذى نقضيه مختارين
٣ ـ مشكلة الزواج والعائلة والاولاد
٤ ـ مشكلة المجتمع الذى نعيش فيه وتنظيم علاقاتنا المختلفة به

والاهمال فى واحدة من هذه المشكلات يتعسنا ويجعلنا فى خصومة دائمة اما مع غيرنا وامامع انفسنا بحيث نعيش فى غير يسر كاننا نكافح تيارا بلا هدف يقتضى المكافحة . والقارىء لهذا الكتاب يعرف أننا نعزف لحنا يتكرر هو أن النجاح يجب الا يقتصر على ناحية أو جملة نواح من الحياة وانما يجب أن يكون قبل كل شىء نجاحا فى الحياة كلها .

ومشكلة العمل الذى نرتزق به تبرز فى عصرنا بروزا واضحا لان العلم لم يستخدم فى الانتاج الى الحد الذى تتوافر فيه حاجات الناس ، ولو استخدم لانتقلت بؤرة الاهتمام من الارتزاق بالعمل الى الانتفاع بالفراغ بل كذلك كانت بؤرة الاهتمام فى المدارس والجامعات تنتقل هذا الانتقال .

والى أن نصل الى هذه الحال التى نرجوها يجب أن نجعل الاهتمام بالعمل الارتزاقى فى مقدمة شئوننا التى نتدرب لها ونثابر على تفهم تفاصيلها . وأعظم ما يجب أن نهتم به هنا هو اختيار العمل بحيث يلائم ميولنا وكفاءاتنا معا ، لأن معظم التعس الذى يعانيه الناس من أعمالهم يعود الى أنهم لم يختاروها بل قضت المصادفات والظروف بأن « يقعوا » فيها وأجبرتهم حاجات العيش على ممارستها كارهين أو متبرمين . وهذه الحال تجعلهم يتبرمون

بالحياة كلها أي يكرهون المنزل والنادي والاصدقاء والكتب لأنهم يكرهون أعمالهم ، كأن حياتهم قدغشيت بغشاء من التبرم والسخط

وعلى هذا نقول أن اختيار العمل الملائم الذي نحبه ونستطيعه هو نصف الانتصار في معركة الارتزاق بل ربما أكثر ، لأننا بعد ذلك ننشط الى الحذق والمثابرة والدرس . ونحن في العادة لا نشرع في الاختيار قبل السادسة عشرة من العمر ، ولذلك نحتاج قبل ذلك الى الارشاد لأننا نجهل ميولنا وكفاءاتنا ونحتاج الى من يحللها ويخبرنا عن حقيقتها .

وكثير من التخلف الذي يصيب الموظف يعود الى كراهته لعمله لأنه أساء في اختياره فهو يتهاون ويتثاءب ويكره رئيسه أو يعتقد أنه يرهقه بالواجبات . بل أحيانا يحس صداعا بسبب هذه الكراهة وهو يتعلل بهذا الصداع لطلب الاجازات أو للزيادة في التهاون والتكاسل الى أن تسوء العلاقات بينه وبين رؤسائه

وعلاج هذه الحال ، إذا كانت الوقاية لم تتخذ من قبل ، هو استخدام الفراغ بحيث يعوض من سأم العمل . وذلك بأن نمارس هواية ما تشغلنا وتعوضنا من النفور من العمل وتعيد الينا اتزاننا ويجب لهذا السبب أن يكون لكل منا هواية بل هوايات تتوافر بها اهتماماتنا ، وعندي أن أعظم هذه الهوايات هو القراءة وتعود الدرس ، لانها هي الهواية الباقية الى سن الشيخوخة وهي في ظاهرها هواية واحدة ولكنها في صميمها جملة هوايات ، لان الذي يعشق الدراسة يجد نفسه مشغولا بالوان مختلفة من الاهتمامات يقرأ الجريدة والمجلة ويناقش السياسة وقد يكافح لمذهب فيها . كما يقرأ الكتب ويقتنيها ويضع المشروعات لدراسات جديدة فيتجدد بذلك شباب ذهنه وتتسع آفاقه العملية والادبية . ومثل هذا الشخص لن يسأم فراغه ولن يقضيه ذاهلا في

غيبوبة نفسية على كراسي المقاهي ولن يقع في العادات السيئة كالتهالك على التدخين أو الشراب

والرجل الموفق هو الذي يجعل هوايته مرتزقة . ولكن يجب أن نعترف أن هؤلاء قليلون في مجتمعنا . حتى الاديب الذي يرتزق بقلمه لا يكتب على الدوام ما يهوى . لان الضغط الاقتصادي يحمله في كثير من الاحيان على الوان من الانتاج الكمي ، لا الكيفي ، يهدف منه الى الكسب لا الى الفن

ولهذا نحتاج جميعنا الى أن يمارس كل منا هواية ما يحل بها مشكلة الفراغ ، ومتى حللنا هذه المشكلة فان العمل الارتزاقي يسهل علينا فلا يكون ذلك المضض الذي نراه في كثير من الموظفين وهم الى مكاتبهم يتجهمون لأوراقهم ورؤسائهم .

العائلة والمجتمع

النجاح العائلي أكبر من النجاح الحرفي . ويجب أن يكون كذلك لأن القيم العائلية بشرية في حين أن القيم الحرفية اجتماعية . والعائلة هي زوجة وأولاد وبيت . والرجل الذى وفق الى اختيار زوجته واستمتع بحبه لها وعنايتها به واعقب أولادا وتعب لهم حتى نموا وأينعوا أمام عينيه ، مثل هذا الرجل قد حظى بنصيب عظيم من متع الحياة .

واختيار الزوجة هو ، مثل اختيار العمل ، نصف المعركة . لأننا اذا لم نحسن الاختيار تعرضنا لألوان من التعس كنا نستطيع تجنبها . واعظم ما يتيح لنا الاختيار الحسن أن نطيل مدة الخطبة حتى نعرف بالاختلاط شخصية الفتاة التى سنتزوجها . وواضح ان الخطيبين يحرصان مدة الخطبة على أن يظهر كل منهما للآخر بأحسن مظاهره . ولكن حتى مع هذا الحرص يستطيع كل منهما ان يفطن الى الاتجاهات والميول فى الآخر .

وقد يكون قضاء شهر فى أحد المصايف خير فرصة يتعرف فيها الخطيب الى خطيبته لما فى الاصطياف من التبذل ورفع التكاليف التى تستر وتخفى حقائق الشخصية .

ويجب ان يتجنب كل منهما اغراء الفتنة . فقد يفتتن الشاب بنغمة الصوت أو زرقة العينين أو تورد الوجنتين فى خطيبته ثم ينخدع بهذه الصفات فى الاختيار السيىء . وخير ما يكفل الاختيار الحسن ان يسأل الشاب نفسه : كيف نكون معا ، أنا وهذه الفتاة ، فى بيت وحدنا بعد خمس سنوات ثم بعد عشر سنوات ؟ كيف نتحدث وكيف يعاشر أحدنا الآخر وكيف يكون أولادنا معنا ؟

وخير للخطيب أن يختار خطيبته فى تعقل ودراية من أن ينزلق فى شهوة الاغراء الجنسى . والحب الضعيف مع الامل فى

نموه في المستقبل بفضل الحب العظيم الذى لن ينمو · ويجب هنا الا ننسى ان الحب هو غير الافتتان · الاول تعقلي · والثاني غريزي · بل هما أحيانا متناقضان بحيث اذا زاد حنان الحب ضعف عدوان الشهوة ·

ويجب ان يكون للقيم والاوزان البشرية التفضيل على القيم والاوزان الاجتماعية في اختيار الزوجة · فالجمال والصحة والذكاء قيم بشرية ويجب ان تفضل لذلك على الثراء والمكانة والثقافة لان هذه قيم اجتماعية · ولكن من الحسن الا يختار الشاب فتاة من غير طبقته الاجتماعية أو دون ثقافته · لان التفاوت هنا يعني تفاوتا في الاذواق والعادات والاتجاهات · واذا كان الاختلاف صغيرا فان النتائج لن تكون خطيرة · ولكنها تفدح اذا كان الاختلاف كبيرا · وفي بلادنا ، حيث تتجه العناية الى تربية الشبان دون الفتيات في أغلب الحالات ، نجد هذا الاختلاف واضحا · ولذلك لابد من التسامح ولكن مع النصح للزوج بأن يعنى بتربية زوجته وتنبيهها الى ترقية شخصيتها وزيادة ثقافتها ·

والتوفيق بين الزوجين لايتأتى مع الحماة او الحمى من اية الناحيتين ولذلك يجب ان يعيش الزوجان مستقلين في بيت منفصل عن الآباء والامهات · فاذا لم يكن هذا ممكنا للظروف الاقتصادية مثلا فيجب على الاقل ان تعرف هذه الحقيقة وان يؤسس البيت مع اعتبار هذه « الضرورة » التي تواجه كما لو كانت صعوبة قهرية لا مفر منها · وبهذا الاعتبار يمكن ان تواجه المواجهة السليمة وان توزن الوزن الصحيح

وكل ماقلناه عن الشاب ينطبق أيضا على الفتاة ·

ويجب على الزوجين ان يجعلا من البيت متحفا وليس مأوى فقط · فاذا جاء الاولاد صار معهدا حرا للجميع آباء وأولادا

فلا سيد ولا مسود . ويجب ان تقتنى التحف الفاخرة وتهيأ الغرف باغلى الاثاث حتى يجذب البيت الزوج ويصير مرتكز نشاطه واهتمامه . كما يجب ان يكون البيت مضيفة راقية يجد فيه الزائرون متعا مختلفة من الرسوم الفنية والموسيقا العالية الى السمر المنير والمناقشة المربية .

والنجاح فى المجتمع يأتى بعد النجاح فى العائلة وهو يحتاج الى ان ندرس المجتمع بتتبع السياسة العامة ، عالمية وقطرية ، والى ان نطابق بين مصالحنا ومصالحه حتى لا يكون تنافر ، هذا التنافر الذى يبلغ القمة عند المجرمين ، لان المجرم يتصرف وهو على غير وفاق مع المجتمع ويصل الى غايته وهو على تنافر مع الاساليب الاجتماعية .

والنجاح الاجتماعى يقتضى العناية بالاصدقاء ورعايتهم وتجنب التفريط فى صداقتهم . وقد يكون الاهتداء الى صديق وملازمته أمتع متعة فى الحياة .

والمجتمع يحتاج الى المزاج الانبساطى اى مزاج ذلك الشخص الذى يحب الاختلاط ويغشى الاندية والمطاعم والمسارح والمصايف ويميل الى الزيارات

وصاحب المزاج الانطوائى ينفر من هذه الانبساطية ، ولكن عليه ان يتمرن على ممارستها الى حدما . كما يجب على صاحب المزاج الانبساطى ان يتمرن على ممارسة الخلوة والقراءة والدراسة والتفكير الى حد ما .

والخلاصة انه يجب على كل شاب او شابة ان يسأل نفسه : هل أنا نجحت فى حل هذه المشكلات الاربع : الحرفة والفراغ والعائلة والمجتمع ؟ والى اى حد بلغ نجاحى ؟

الحياة والحب

فرق ما بين الشاب قد دخل الحب فى حياته ففرح وطرب باللقاء كما لهث وتعب بالحرمان وبين الرجل اغلق على قلبه فلم يعرف لذة اللقاء ولا لوعة الحرمان . اجل .. انه فرق مابين الحياة والموت ، مابين النشاط المنعش والركود الآسن ..

والحب هو شهوة الجسم ، كما هو تعقل النفس .. وهو ما دام على مستوى الشهوة ، يتركنا فى ذهول حيوانى . اما حين يخرج من الشهوة الى التعقل .. الى احساس النفس ، فاننا نجد فيه المعانى العميقة والآفاق الواسعة ..

اعتبر مثلا هذه الظاهرة . فاننا عندما نشتهى المراة ناخذ منها ونستخدمها . اما حين نحبها فاننا نعطيها ونخدمها .

ويجب لذلك ان نتسامى بالشهوة الى الحب . وليس معنى هذا التسامى ان ننسى الشهوة ولكننا ننقلها من الذهول الحيوانى الى التعقل البشرى ، من الاخذ والانتهاب الى الاعطاء والسخاء .

والحب عند اللقاء سعادة سامية . ثم هو عند الحرمان لوعة وخلوة وتامل ..

بل ان الحب ، على ما نجد فيه من طرب فى اللقاء ، قد يكون اسمى وقت الحرمان . لاننا فى اللقاء نجد ذبذبة الجسم فقط . اما وقت الحرمان فاننا نجد الذكرى والخيال ، فنحيا فى طرب الذبذبة النفسية . وعندئذ يكون الشعر والفن ، بل تكون الحكمة

والعلاقة بين الحب والفن ، بين الغرام والشعر ، اكبر مما نظن . بل انها لتكاد تكون مطابقة اذ نجد فيها جميعا غلوا وحماسة واهتياجا . ولم يكن لذلك عفوا ان يغدو الحب موضوع الادب والشعر عند جميع الامم المتمدنة بل الامم البدائية ايضا . لانها جميعا ارتفاعات نفسية متشابهة . واشعار الحب تجرى على السنة العامة كما لو كانت اشعار المجد كما ان الرسوم التاريخية تتناول

قصص الحب ، فى قداسة الاحساس الفنى ، كما تتناول قصص الدين او الابطال من القواد والعظماء .

ونحن نعرف من كلمة التضحية انها وصف الابطال ، ولكننا ننسى ان اعظم المضحين هم المحبون . وكثيرا ما نقرا فى الصحف عن حوادث البطولة عند افراد من العامة وقت الحب . فان كلا من المحبين قد يضحى بنفسه للآخر . وهو انما يرتفع الى هذا الاحساس النبيل لان غلواء الحب ، مثل غلواء الفن ، تحرك خياله وتستنهض شرفه ونبله حتى تحيله من شاب عادى يحترف النجارة او البقالة الى بطل ..

وليس الحب مع ذلك حقا لكل انسان . لا . انما هو المكافاة التى يستحقها الانسان الصالح للبقاء . وذلك عندما تكون فيه ميزات فى الجسم والعقل تجذب اليه الجنس الآخر فى اعجاب واشتهاء ، والاعجاب والاشتهاء هنا هما صوت الطبيعة للنقاء ، تعبر عنهما المراة بالرضى والانجذاب .

ولذلك يجب على كل انسان ، قد خاب فى حبه ، ان يسال عن الاسباب لهذه الخيبة . اذهى خيبة الحياة التى قد ترجع الى نقص فى كفاءاته الفطرية والاجتماعية . كما ان من حق كل انسان أن تتاح له الفرصة بأن يسعى ليسعد بالحب ، وان يعثر فى ارجاء دنياه وحياته على هذا الشخص الآخر الذى ينتظره لاتمام سعادته .

ويجب ان يسبق الحب الذى يسمو على الشهوة ، الزواج . وصحيح ان هناك حبا ينشا بعد الزواج حين لاتكون الفرص قد توافرت للاختيار قبل الزواج . ولكن هذا نادر لايضمن . ولذلك من حق كل شاب وفتاة الا يقدم احدهما على الزواج الا بعد الاحساس الصحيح بأن هذا الشخص الآخر المنتظر جدير بالاعجاب والحب .

الجمال والحب والفن

فى مثل هذا الشهر من العام الماضى كنت فى باريس وكنت فى مقهى اتصفح جـريدة الصباح وقعدت الى جوارى سيدة فرنسية ومعها ابنها وكان صبيا فى نحو العاشرة . وما هو ان استقرت حتى اخرجت بضـعة فرنكات وارسلته كى يشترى وردة

وعاد الصبى بعد دقائق ومعه وردة زاهية . وتاملتها السيدة كأنها تستمتع بزهـوتها . ثم اخرجت مرآة صغيرة من حقيبتها ووضعت الوردة على شعرها

وتأملتها انا فى اعجاب . فقد جلت الوردة سحنتها بنور من الحياة وتألق وجههـا جمـالا واكتست العينان فتنة والوجنتان حمرة

وعدت الى نفسى اتأمل وافكر فى هـذا التأنق الذى يتسم به الباريسيون رجالا ونساء . وهو تأنق يشمل كل شىء فهـو فى الهندام كما هو على المائدة . بل كما هو فى اللغة والايماءة . وهو فى المدينة ، ميادينها وشوارعها كما هو فى البيت

انهم يتسامون الى الجمال فى كل مادق وجل .

وليس فى الدنيا مدينة أحفل بالتماثيل العظيمة من باريس . وهى تماثيل تخلد ذكرى العظماء احيانا ، ولكنها تمثل احيـانا الفـكرة او الارادة او الامل او العظمة . هى أفكار تعبر عنهـا الاحجار

وليس فى الدنيا بيت يجمع بين الفن والخدمة ، بين التأنق والضرورة ، كما يجمع هذا البيت الفرنسى الذى تعنى ربته بالزهر يوضع على المـائدة كما تعنى باناء الحساء المزخرف

واحيانا اتأمل جمال الفتـاة الفـرنسية واحاول ان احلل تفاصيله واجـزاءه . وكثيرا ما انتهى الى الاستنتاج بأنه ظرف

AMERICAN UNIVERSITY IN CAIRO
LIBRARY

واناقة اكثر منه جمالا او ملاحة . فهو احيانا هندام انيق كان مهندسا قد رسمه بالالوان وهدف منه الى اخراج فراشة زاهية تظن انها لم تخلق الا لترشف الرحيق .

ثم هذا التأنق ينتقل الى اللغة فليس هناك استهتار في التعبير او اهمال في اخراج الفكرة ، معينة مبينة ، لايشوب معانيها غموض او شك . وكثيرا مارأيت محدثي يتعنى ويتعمل كي يعبر بالكلمة والجملة عما يعني في وضوح . والمثل الفرنسي يقول : « ماليس واضحا ليس فرنسيا » . ولم يؤلف هذا المثل عبثا . وهذا الوضوح هو في النهاية تأنق .

ولقد رأيت نساء ورجالا فوق الستين في باريس . واقسم اني وجدت في وجوههم من روعة الجمال ما لعله يفوق جمال الشبان والفتيات . فانهم يتخيرون ملابسهم في عناية . وتعنى المرأة بتصفيف شعرها كما يعنى الرجل بقص لحيته . وكلاهما يبدو كما لو كان قد صاغ وجهه فنان عظيم .

هذا التأنق هو فن جميل يجب ان نتعلمه ونمارسه ، وانما نمارسه بأن نكون ادباء وشعراء . والشاب في حبه للفتاة ، والفتاة في اعجابها بالشاب ، يجدان معاني الشعر والادب ، كل منهما في الآخر . ولم تكن مصادفة ان يكون الحب ، عند جميع الامم المتمدينة ، موضوع الادب والفن ولكنه لم يكن كذلك قصدا ، وانما يلتصق الحب بالفن أو ينبع الفن من الحب ، لان الحماسة الجنسية ، عندما تحتبس تنتهي الى منافذ من الحماسة الفنية بل احيانا تنتهي الى ألوان من الحماسة الروحية .

فنحن نفهم الفن ونعلله في مجنون ليلى أو قيس لبنى . وهو واضح لايحتاج الى تفسير . لان تأمل الجمال عندهما قد أحدث أنغاما فنية في النفس نطق بها المحب اشعارا واستحال فنانا ولكن يجب الا ننسى ان اعظم الرهبان كانوا أيضا شعراء . وان

الكنيسة الكاثوليكية ، التي لايزال كهنتها من الرهبان ، هى أعظم المؤسسات الفنية في العالم، بل يجب الا ننسى ان الحب والفن قد اندغما اندغاما مضللا احيانا ،ومنيرا احيانا ، فى ابن الفارض وابن عربى وسائر المتزهدين ،مسيحيين ومسلمين .

ولكن هذا الحب عند هؤلاء الفنانين وعند هؤلاء الرهبان والمتدينين ، كان مكظوما قد احتبس. ثم تجمع بخاره فانفجر أدبا وفنا . كما يحتبس الماء وقت الغليان فلا يخرج ماء اذ يستحيل بخارا .. غازا ..

ولو ان الحب وجد هدفه عندهم بلا عائق وبلا كظم ، لما تسامى الى البخار .. الى الفن والادب .

ولا يختلف الفنان ، وقت الحماسة الفنية ، عن الحيوان وقت الحماسة الجنسية الا من حيث ان الاول قد سما بالحب الى مستوى التعقل والوجدان .وبقي الثانى على مستوى الشهوة والغريزة .

واعظم مايمتاز به الادب والفن هو الغلو .. هذا الغلو الذى هو الميزة الاولى للطرب الجنسى .ولذلك نحن نجد فى طرب المعانقة نوعا من طرب الفن ، ونتحدث عنه فى غلو الشعر والادب .

يجب على المجتمع ان يبيح الحب للشبان والفتيات ، لانه حقهم الطبيعى . ولكن يجب على هؤلاء الا يستبيحوا الحب ويرتخصوه. اذ هو عند الارتخاص شهوة اللحم فقط دون شهوة الذهن ، وذبذبة الجسم دون ذبذبة النفس .

ولعل أسعد أوقات الحب هى تلك الساعات التى نبتعد فيها عن الحبيب حين نختلى ونتأمل ونتذكر . فاننا هنا نرتفع الى الشعر والفن والفلسفة .. نرتفع فوق انفسنا .

والشاب الذى يهدف الى الجمال والحب والفن يحيا الحياة الفنية

ويسلك السلوك الكمالى . وما اجمل ما قاله ثورو الكاتب الامريكى: «كل انسان يبنى معبدا هو جسمه ، وهو يتعبد فيه على اسلوبه الخاص ، وهو لن يجد مايعوضه من هذا المعبد مهما دق ونحت فى المرمر ، ونحن جميعا مثالون ورسامون ومادتنا هى لحمنا ودمنا وعظمنا . وعواطفنا النبيلة تكسب هذا التمثال الذى نصنعه من انفسنا جمالا وروعة ، كما ان عواطفنا الحسيسة تكسبه حيوانية وشهوانية »

ما أجمل هذه الكلمات وماأجمل هذه الفكرة التى تعبر عنها

ان أفكارنا ، وعواطفنا ، واحساساتنا ، كل هذه تصوغ من كل منا شخصية جميلة اودميمة ، فاذا فكرنا فى القبح عم كياننا قبح له خطوط بارزة فى الوجه والجسم . واذا فكرنا فى الجمال نطقت ملامح وجوهنا وتقاسيم اجسامنا بالجمال .

ولن نفكر فى الجمال الا اذا احببنا . ولن نحسن هذا الحب الا اذا كنا شعراء وادباء وفنانين

تحرير الزواج

يجب أن يكون الزواج حرا من اعتبارات المال ، والجهاز ، ومكانة الاب العالية التى يمكن استغلالها

وأساس الزواج السعيد هو الحب ، الحب الذى لاينبنى على الشهوة وجمال الجسم ولكن على التعقل

وجمال الجسم الذى يغرى ويجذب ضرورى . لاشك فى ذلك . ولكن اذا حرم الزواج التعقل فانه ينتهى الى الارتطام بالصخر .

وليس التعقل ان نحسب القيم العرفية الاجتماعية ، المال الذى تملكه الفتاة ، أو الجهاز الذى سيقدمه ابواها ، أو المكانة الاجتماعية للأب . لأن كل هذه الاشياء الى الزوال . ويبقى بعدها عقل هذه الفتاة التى سنتزوجها وطاقتها الوراثية التى سيرثها أبناؤنا منها وأخيرا جسمها وقامتها وكلاهما سيورث فى الابناء .

وقد تعودنا الاهتمام بالجهاز وصار التفاضل بين عروس وعروس يقدر بقيمة الجهاز . وصار هذا عرفا . حتى لو أن أحد الآباء رفض تجهيز ابنته لكان هذا الرفض مدعاة لرفض الزواج . وهذا مايضحك منه الاوربيون المتمدنون

والاصل لهذه الحال عندنا اننا ، بتقاليدنا الماضية ، قد ألغينا الحب بين الشبان والفتيات . وأقمنا حجابا على الفتاة حتى لايراها الناس فضلا عن خطيبها . وكان الزواج يجرى هكذا فى الخفاء والظلام . يعتمد الشاب على شهادة والدته أو أخته ولايرى وجه عروسه الا بعد أن يدخل عليها

وقد ألغينا نحن ، بما حصلنا عليه من التمدن ، هذه التقاليد . وصار الخطيب يقعد الى خطيبته ويتحدث اليها وقد يخرج معها بصحبة أخيها أو أمها . ولكن يجرى كل هذا فى تحفظ ، فى جمود

ومعنى هذا اننا لانتزوج عن حب ، عن غرام يكتسح ويسكر ، ويجعلنا ننسى كل شيء الا هذا الشخص الذى سنرتبط به ونعيش معه نحو أربعين او خمسين سنة

ولقاء هذه الحال ، لقاء هذا الانتفاء للحب ، نطلب مايعوضنا منه وهو الجهاز او المال أو مكانة الاب . وهذا هو مايضحك منه الاوربيون الذين يتزوجون عن حب وغرام

وشهور الخطبة عند الاوربيين هى سعادة ، هى ارتفاع فوق السحب ، هى جمال وفن وفتنة ، هى خطر ومغامرة وانتظار ومؤامرة ، هى تربية لكل من الخطيبين تستنبط من كل منها أجمل الصفات وأحب الميزات . هى مجهود يبذلانه كي يثبت كل منهما انه ليس فى الدنيا أجمل منه أو أعقل منه . وليس جميلا بنا ان نحرم شبابنا وفتياتنا هذه السعادة ، هذه التربية

ويمتاز الاوربيون علينا بانهم يتعلمون الرقص ويجدون فيه تدريبا على الحب وتربية للغرائز . وكلمة الرقص أعريقية وهى مشتقة من كلمة « أوركستر » التى تعنى الفرقة الموسيقية . ولذلك كان ولا يزال فن الرقص أجنبيا بعيدا عن الامم العربية . وماعرفته هذه الامم من هذا الفن انما كان مقصورا على الاماء أى الجوارى اللائى كن يشترين بالنقد . وكانت الامة تتعلم الرقص كي تثير فى مولاها الغرائز الجنسية لا اكثر . وورثنا نحن هذه الحركات الشهوانية حتى اننا رأينا من كرامتنا عقب نهضتنا فى ١٩١٩ أن نلغى الرقص كله . وكان هذا حسنا

ولكن الرقص الاوربى ليس كذلك . فانه فن عظيم رائع

تذكر ايها القارىء ان الراقصة الاوربية تنظر الى أعلى وهى ترقص . أجل انها تسمو

ولكن الراقصة المصرية كانت ولا تزال تنظر الى أسفل . أجل انها تسفل

ومن هنا الرأى الحسن عن الرقص فى أوربا والرأى السيىء عنه فى مصر

وكثيرا ما يلتبس على القارىء، وخاصة اذا لم يكن قد اختلط بالاوربيين ، معنى الرقص · حتى انه حين يجد كاتبا مثلى يدعواليه تمثل فى ذهنه صورة الراقصة البغى التي تنظر الي كفليها وبطنها وساقيها وتحرك كل هذه الاعضاء وهى ترقص · فى حين انى حين أكتب وأطرى الرقص انما أذكر الراقصة الاوربية التى تنظر الى السماء وتنشد الاشعار بحركاتها وايماءتها

والاختلاط بين الجنسين فى المجتمع والمدرسة والجامعة ضرورى . وهو تدريب حسن للحب. بل تدريب ضرورى. لأن الشاب يحتاج الى تسديد الغريزة الجنسية حتى لاتنحرف · ولذلك يجب ان يبقى على الدوام على رفقة مع الفتيات · أما اذا انقطعت الرفقة بين الشبان والفتيات فان الغريزة الجنسية تختل وتنحرف الى شذوذات خطيرة بل خطرة · وهذا هو ماوقع بالفعل عند الامم العربية وفى الهند وكثير من الامم التى مارست الحجاب

يجب أن يكون زواجنا حرا من اعتبارات المال والجهاز والمكانة الاجتماعيـــة

الاختلاط قبل الزواج

كلنا يمدح المعرفة ويؤثر الرجل العارف المجرب على الرجل الجاهل الغمر · الا فى الزواج · فاننا أحيانا نؤثر الجهل على المعرفة · وفى هذا أصل للكوارث الزوجية العديدة

فهناك من الشبان الحمقى من يقولون بأن الفتاة المتعلمة لا تصلح للزواج وان الفتاة الجاهلة خير منها · وهم بهذا القول يخشون الذكاء المدرب بالتعليم فى الزوجة ويخشون نقصهم الذى تكشفه الزوجة المتعلمة

وهناك من الشبان الحمقى ايضا من يكرهون الزواج من الفتاة التى اختلطت بالمجتمع فعملت مثلا معلمة أو سكرتيرة أو بائعة فى متجر أو عاملة فى مصنع · لأن هذا الاختلاط قد جعلها تعرف بعض الشبان أو تتحدث اليهم

وهذا النظر الشرقى للمرأة لا يختلف كثيرا عن نظر الصينيين لها قبل مائة سنة حين كانوا يضعون قدميها فى أحذية من الخشب والحديد حتى تعطل عن المشى والسعى وتبقى للبيت والسرير · وتنقل الى زوجها محمولة كما تحمل التحف والطرف من الاثاث

ومجتمعنا الحاضر ، هذا المجتمع غير الاجتماعى ، لا يربينا سواء أكنا رجالا أم نساء · لأنه يفصل بين الجنسين · وكثيرا مايؤدى هذا الفصل الى الشذوذ الجنسى عند الرجل والمرأة · لأن الرجل الذى يبلغ الخامسة والعشرين أو الثلاثين وهو لم يجد الفرصة بل الفرص المتكررة للحديث الى المرأة ومعاملتها والقعود اليها ينتهى بأن تتجه طاقته الجنسية نحو بنى جنسه من الذكور · وكذلك الحال فى المرأة

وعندمايستقر راى الشاب على الزواج فى الخامسة والعشرين أو الثلاثين وهو على غير معرفة واثتناس سابقين بالفتيات ، وعندما يقعد الى فتاة للخطبة ، فانه يسىء الاختيار . وكذلك الشأن فى الفتاة تسىء اختيار الزوج اذا لم تكن قد أتيحت لها فرص سابقة بالقعود الى الرجل والحديث معه والتعامل مع الرجال في حرفة ما . ذلك لأن الصفات التي يطلبها كل جنس من الآخر تحتاج الى أن تكون على الدوام بارزة في الوجدان حتى لاتنسى وحتى لاتطغى عليها أفكار فاسدة وأحلام زائفة للانفصال الذى يمنع الاختلاط بين الشبان والفتيات

اننا تحرض الشبان على الشذوذ الجنسى بهذا الانفصال . بل أيضا نجعل من الزواج غشا او خداعا لأن الخطيبين لايستطيعان استكناه ميولهما الجنسية التى عطلت بالانفصال قبل الزواج . وهما يتزوجان على جهل ، على احتباس سابق مؤذ للغرائز الجنسية بل ربما على انحراف لهذه الغرائز للانفصال بين الجنسين . ولذلك كثيرا ماينتهيان بعد شهور الى انهما قد أخطآ فى الاختيار

ان الفتاة المثلى التى تليق للزواج ، والتى ترجح لها ولزوجها السعادة ، هى تلك التى عملت وارتزقت بمجهودها قبل الزواج واختلطت بالمجتمع وتربت "التربية الاجتماعية وتحملت مسئولية الارتزاق ومسئولية المصلحة الاجتماعية واحست انها عضو نافع منتج فى الامة . وهى حتى حين تقف عن العمل والكسب ، بعد الزواج ، تكون قد كسبت من حياتها الماضية بصيرة بمعانى الوفاق الزوجى والكرامة الشخصية . وتكون قد قدرت الحقوق والواجبات فى عمل زوجها وكسبه . وهى عندئذ تبنى للمستقبل ، لزوجها ، وأبنائها ، فى فهم ودراية . هى

انسان وليست انثى فقط . هي أم لأولادها في حياة زوجها . وهي أم وأب لأولادها اذا مات زوجها . وهي في هذه الحال تستطيع ، اذا شاءت ، أن تعود الى الكسب والاحتراف لما كان لها من مرانة سابقة

وهناك أوهام شائعة عندنا بان الفتاة الاوربية فاسدة لانها تعمل وتكسب . مع ان هذه المرانة السابقة في العمل والكسب تهيئها لان تكون الزوجة المثلى التي تقدر مسعى زوجها وجهده . وهي لذلك تعدره . كما ان اختلاطها السابق بالمجتمع واحساسها بأنها منتجة نافعة للشعب يجعلها تحس الكرامة والشرف ويجعل القيم الاخلاقية عندها اجتماعية وليست فردية

يجب أن تتغير . ويجب أن نرفع المرأة الى مستوى الرجل في الحقوق الدستورية . وان نعلمها الارتزاق بالكسب . وأن نتيح لها الاختلاط بالجنس الآخر حتى تربي الرجل وتتربى هي معه . وهذا الاختلاط هو الذي يجعلها ، كما يجعل خطيبها ، يحسنان الاختيار ويسعدان بالزواج .

والسعادة الزوجية تحتاج الى تكافؤ بين الزوجين . وبعض هذا التكافؤ ذهني واخلاقي . وهو لن يتوافر الا اذا تعلمت الفتاة وعملت وكسبت قبل الزواج

زواج العقل أم زواج العاطفة

العاطفة هي التفكير الاندفاعي الذى تغلب عليه الحركة أكثر مما يغلب عليه التأمل . وهى خاصة الحيوان والطفل أكثر مما هى خاصة الرجل الناضج . ونحن نسميها شهوة حين تشتد وتغمر كياننا

ونحن الرجال والنساء نشتهى الجنس الآخر لمحض انه الجنس الآخر . أى أن الاشتهاء هنا لا يمتزج بالتعقل والتفكير فى شخصية هذه المرأة أو هذا الرجل الذى نشتهيه . وهذا هو المستوى الحيوانى

ولكن الرجل الناضج المثقف يأبى حتى الطعام اذا لم يكن فيه مايبرر اساغته سوى الطعم الحسن ولذة الشبع . فهو لايشتهى الطعام ويندفع اليه بعاطفة الجوع فقط .. ولكنه يزن قيمته الغذائية . بل يزن أيضا قيمته الفنية فيتأنق ويختار .

وبكلمة أخرى نحن نختار الطعام بعقولنا وليس بعاطفتنا . وكذلك يجب ان يكون شأننا فى اختيار الشخص الآخر الذى نتزوجه ، نختاره بعقولنا وليس بعاطفتنا بحيث لايغرينا انف دقيق أو فم صغير أو وجه مستدير أو بشرة بيضاء أو نحو ذلك وانما نزن هذا الشخص بعقولنا ونسأل هل يليق أن يكون أما أو أبا لأبنائنا ؟ وكيف تكون شخصيته بعد عشرين سنة ؟

ولا نقصد الى القول باننا يجب أن نهمل العاطفة . فاننا نعتقد ان الاساس لكل زواج هو الاغراء الجنسى الذى يقوم على استجمال الجسم . ولكن يجب ان نحترس من هذا الاغراء اذ هو قد يثير شهوة عمياء (حيوانية) ليس فيها اى وجدان او تعقل للمستقبل . وكثير من المآسى الزوجية يعود الى هذا الاندفاع العاطفى فى اختيار الشخص الآخر للزواج . اذ يتضح بعد شهور حين تهدأ العاطفة ان هذا الشخص هو طراز آخر غير

طرازنا واننا تختلف معه فى كل خطوة وان العيش معه لايطاق • ثم يكون الانفصال الذى ربما يقع بعد ولادة طفل أو طفلين تبقى مشكلتهما قائمة نحو عشرين سنة . او لايكون الانفصال الذى يضحى فيه احد الزوجين أو كلاهما بالسعادة والوفاق ويستحيل البيت الى جهنم حمراء للشقاق المتواصل

يجب أن نتزوج زواجا انسانيا • ولما كانت ميزة الانسان الاولى هى العقل فان الزواج يجب أن يرتكز أكثره على العقل وأقله على العاطفة • وما دمنا نكفل الاغراء الجنسى فى جمال الجسم فان الاختيار بعد ذلك يجب ان يتجه نحو الصفات الانسانية الاخرى مثل الكفاءة للمعاشرة الزوجية والكفاءة للأمومة والكفاءة للمقام الاجتماعى ونحو ذلك

وعلينا ألا ننسى ان الحب كثيرا ما يأتى بعد الزواج وليس قبله • وذلك لأننا نعاين كل يوم من هذا الشريك صفات غالية من الشرف والرقة والكياسة والذكاء ما يجعلنا نحبه ونعجب به • بل يجب أن يكون هذا هو البرنامج لكل زواج • بل الواقع ان الحب لايجد مكوناته ومؤهلاته أيام الخطبة السابقة للزواج لما فيها من تكلف وأيضا لما يقوم بين الخطيبين من انفصال الا أوقات الزيارة • أما بعد الزواج فان التكلف يسقط ويبدو كل من الزوجين على طبيعته ومستوى تربيته فاذا كان يستحق الحب على هذا المستوى وعلى هذه الطبيعة فانه يحب

ويجب ان يكون هذا الحب ، بعد الزواج ، هدفا لكل من يرشح نفسه لهذا الرباط الاجتماعى السامى • لأن هذا الاتجاه جدير بأن يهيىء الفتاة والشاب الى التزيد من الاخلاق السامية والنضج الثقافى وتحقيق المكانة الاجتماعية والاستمرار على ذلك طوال المعاشرة الزوجية • وعندئذ لايؤدى سقوط التكلف

الى تلك البذاذة او ذلك الاهمال الجسمى والذهنى الذى كثيرا مايجعل الزوجة رثة الثياب او يجعل الزوج فظ الكلمات

ليس الزواج حالا مستقرة وانما هو مجهود مستمر لزيادة الحب والحنان والمؤانسة والثقافة والنمو والنضج للزوجين وللابناء

واخيرا نقول انه كثيرا مايلتبس على القارىء القول بافضلية زواج العقل على زواج العاطفة بان القصد من هذا هو ايثار الزوجة الثرية ، ولو كانت دميمة الجسم او النفس ، على الزوجة الفقيرة جميلة الجسم او النفس . وهذا خطأ خطير . فان هذا الزواج ، زواج المال ، هو شر مايقع فيه انسان لأنه يحيل أحد الزوجين الى خادم للآخر او الى لص خفي يختلس ويخدع . وليس هذا زواجا انما هو خداع ومكر وغش . وهذه كلها جرائم

***

عرفت شابا اغرم بفتاة غرام العاطفة المتأججه التى تعمى بدخانها أكثر مما تضىء بحرارتها . وتزوجها وبقى الاثنان فى حمى الشهوة الجنسية سبعة أو ثمانية شهور

وكان هذا الشاب قبل أن يتزوج يحيا على مستوى عال من الادب والاطلاع والاشتباك فى حركات ذهنية وسياسية واجتماعية . وكان ينشد السعادة بتحقيق أهداف انسانية . وكانت له رفوف من الكتب في منزله تشبه أو تقارب المكتبة وكان له أصدقاء راقون يحسنون فن الحديث والمناقشة ويتفاهمون عن الموضوعات العامة أكثر مما يحسنون اللعب بالورق او التنادر السخيف عن الحوادث والاشخاص

وبكلمة موجزة أقول انه كان له قلب يحس الاحساسات الحميمة نحو الطبيعة والبشر والتمدن والثقافة

وبعد سبع أو ثمانى سنوات من زواجه ، هذا الزواج العاطفى الذى وقع فيه دون أن يحتكم الى عقله ، وجدته حيوانا أليفا يشكو

كثرة الابناء ولا يفكر الا فى طعامهم وشرابهم لضيق رزقه . وقد أنسته زوجته جميع القيم العالية السابقة التى كان يستمتع بها : الكتب والاصدقاء والمبادىء والطبيعة . ورأيت زوجته فوجدتها امرأة سمينة تاكل اللب وتمضغ اللبان وتطبخ طعامها بالثوم حتى تحت شاهيتها اليه وحتى ليفوح نتنه منها . ولم تقرأ الا المجلات المصورة الوضيعة ولم تكن تعرف كلمات المناقشة أو موضوعاتها .

حياة وخيمة وبيت وخيم . ولو أن هذا الشاب كان قد تعقل واختار زوجة يفضلها العقل لما أكثر من الابناء حتى يرهق بهم وحتى يحرم نفسه بسببهم متع التربية الذاتية والارتقاء المتواصل ولما نزل عن أمانيه الانسانية السابقة

زواج العقل هو الزواج الانسانى . وزواج العاطفة هو الزواج الحيوانى

لغة الحب

مما يجهله كثيرمنا انللكلمات أثرا فى صحة النفس ومرضها • فان كلمات المروءة والشرف والحرية والانسانية والديمقراطية والشهامة والشجاعة وامثالها تعين لنا أهدافا واتجاهات سامية. فى حين ان كلمات الحسد والشماتة والانتقام والثأر والدم (بمعنى الثأر عندالصعايدة) توجه الناس نحو الشر كما تحدث سلا داخليا يأكل النفس

وفى اقطارنا العربية ما زلنا نستعمل كلمات لها اسوأ الاثر فى العلاقات الجنسية وفى مكانةالمرأة فى المجتمع وارتقائها •فان المرأة حين تبلغ التاسعة والاربعين نقول انها بلغت سن « اليأس » وهذه كلمة بشعة جديرة بأن تزعزع الكيان النفسى فى المرأة وخاصة اذا كانت لها ضرة اصغرمنها فى السن او كانت تخشى الطلاق او كانت تعانى حديث الحماة المنافرة • اذ نحن نقول للشاب حين نجد منه خوفا اواحجاما : لاتيأس • ولكننا نقول للمرأة : أيأسى : موتى

ولو اننا اسمينا هذه السن سن الحكمة او سن النضج لكان لهذا التعبير قيمته الكبرى فى السكينة النفسية والكرامة الشخصية عند المرأة

وكذلك نحن نرتكب جريمة لغوية اخرى عندما نسمى الاعضاء التناسلية فى الرجل او المرأة بأسماء الاستهتار والاحتقار • لاننا بذلك نلصق بها خسة اورذيلة وكأننا نجعل مقاطعتها بالنسك والرهبنة فضيلة •وهذا على الرغم من ان هذه الاعضاء هى الوسيلة للخلود البشرى وبدونها يكون الانقراض للنوع البشرى كله.

ان الاوربى يجد فى لغته كلمات سامية تعبر عن الحب ويقرأ قصصا عالية يفهم منها ان الحب رقة وحنان وشرف ووفاء

وان الاعضاء التناسلية من اشرف ماتحتويه اجسامنا . كما انه يحترم المرأة ويعدها مساوية للرجل . وهو ، لهذا السبب ، عندما يفكر فى الحب والزواج يجد من هذه الكلمات ، ومن هذه القصص ، ومن مركز المرأة الذى يساوى مركز الرجل ، يجد من هذا كله اسلوبا يتخذه فى الحب واخلاقا يتخلق بها فى الزواج

ولكننا فى مصر قد تعلمنا كلمات بذيئة عن الاعضاء التناسلية ، ونكات داعرة عن الاتصال الجنسى ، وقرانا قصصا مهينة للكرامة عن الحب والزواج وفشت على السنتنا كلمات ، اى أفكار وصور ، جعلتنا نقترب من هذه الموضوعات كلها كما لو كنا حشاشين داعرين

واحيانا يحدث التصادم . من ذلك مثلا ما شاهدته بنفسى . فانى عرفت شابا وقع فى جنون المراهقة ، الشيزوفرينيا ، لانه رأى والديه فى وضع زوجى

ذلك انه تشأ على أن الامومة مقدسة . ولكن الاتصال الجنسى مدنس . فلم يستطع التوفيق بين الاثنين . وطار عقله الى غير رجعة

ولو اننا كنا قد علمناه الكلمات المهذبة عن الحب والزواج ، ولو انه لم يكن قد سمع كلمات الحشاشين عن الاعضاء التناسلية ، ولو انه كان يختلط بالجنس الآخر الاختلاط المهذب فى ضوء الصراحة لما استغرب هذا المنظر الذى صدمه وأطار عقله

أجل . ان لنا كلمات وعادات فى مصر تذهب احيانا بأبنائنا الى المارستان

يجب ان نعلم ابناءنا وبناتنا وظائف الاعضاء التناسلية التى يجب ان نحوطها بهالة تنأى بها عن النكتة القذرة والنادرة

السمجة . لان هذه الاعضاء هي للخلود ، للخلود البشري .وهي ليست للنكات والنوادر

وهذه النظـرة الساخـرةالاستهتارية التهكمية للاعضـاء التناسلية وللمـرأة هي تراثالقرون الماضية حين كان يشترى الرجل المرأة للاستهتار الجنسي فيلعب ويعبث بها كما يشاء . فلم تكن علاقته بها علاقة الانسـان بالانسان وانما كانت عـلاقة الانسان بالعبد. ثم كان من تفشيالاتصال الجنسى الشاذ دافـع آخر يجعـل من ذكر الاعضاءالتناسلية خسة وبشاعة

أما الرجل الذى يمتاز بنظافةالقلب والعقل فلا يجد فى هـذه الاعضاء مايثيـر السخرية اوالتهكم . هو رجل امام امرأة ، هو انسان ازاء انسان ، كلاهمايحب الآخر ويحترم انسـانيته ويعجب بجمال جسمه وجمـال نفسه معا

يجب أن يتعلم شـبابنا فنالحب ، فن الحيـاة الزوجية التى تمتلىء بالحنان والسرور ، فياحترام متبادل بين الزوجين

لقد كانت تقاليدنا الاجرامية تقتضى العريس ان يفض بكـارة عروسه فى الليلة الاولى مـنالزواج بأسـلوب وحشى قـد ارتخص فيه الحياء وقد استعينفيه على اسكات العروس بنسوة رقيعات يغمرهن احساس الشماتةولذة التعذيب . وكانت هـذه الليلة تبقى بعد ذلك رمزا ،اسوالرمز ، لافتتاح الحياة الزوجية بالصراخ والدم

ولكننا قد ارتفعنا فى أيامنـاواقلعنا عن هذه العادة . ويجب ان نرتفع ونقلع عن عادات اخرىلغوية وعملية فى الحب والزواج. وانه لمن الضرر العظيم ، للنفسوالجسم ، ان يعيش كل منـا نحو خمسين أو ستين سنة فيحال زوجية ثم نجعل هذه الحال أسرارا والغـازا ونكات ونوادربدلا من ان نكشف عنها ونسلط عليها اضواء سيكلوجية تنيرهـ.اوتزيد سعادتها وتبرر لعتها

ان الزواج ، كي يكون سعيدا ، يجب أن يكون حرا ، لا اجبار بل لا اغراء فيه ، لاحد العروسين أو الخطيبين . ويجب ان تسبقه مدة للاختبار حين يترافق الخطيبان للتعارف . كما يجب ان يكون قائما على الدوام على العقل وليس على العاطفة .

ويجب ان نعلم شبابنا كيف يحترمون كل ما يتصل بالتناسل ويرتفعون به عن كلمات الاحتقار والاستهتار . لان الكلمة السيئة التى يتعلمها الشاب مدة عزوبته تحمل الفكرة السيئة التى يمارسها بعد ذلك مع زوجته

كلمات اللغة هى عادات التعبير باللسان والسلوك الزوجى والاحساسات العائلية والمعيشية فيجب ان نقاطع الكلمات البذيئة الزرية لانها تحملنا على سلوك بذىء زرى يفسد القيم الزوجية والاحترام لاعضاء الخلود البشرى. وبكلمة اخرى يجب ان نتعلم كلمات الحب المهذبة حتى نعامل زوجاتنا المعاملة الجنسية المهذبة ويجب ان نقاطع كلمات الحشاشين لانها ، اذا ثبتت على السنتنا ، أكسبتنا عقلية الحشاشين فى معاملة الزوجة

ابن حزم والحب العذرى

المعنى الحرفى الذى نستطيع ان نستخلصه من عبارة « الحب العذرى » هو الحب للفتاة العذراء بحيث يدوم الحب مع عذريتها . ولكننا نجد ان الذين سموا الحب من هذه البؤرة قد اضافوا اليه من الخيال والحنان والرقة والانسانية ما سما به الى معان جديدة ترتفع على هذا المعنى الاصلى .. فجعلوا المحب ينشد الطهارة حتى ولو لم تكن حبيبته عذراء

وقصص العرب الخيالية او الحقيقية عن قيس ولبنى او المجنون وليلى، هى من هذا القبيل . فاننا نجد حبيبين يتعاهدان على الوفاء . فيذكر كل منهما الآخر فى قلبه ويجرى اسمه على لسانه وتعود اليه ذكراه فى رقة وحنان . وقد يلتقيان فلا يكون بينهما سوى الحديث . حديث القلب الذى تشرف عليه رقابة العقل لان احدهما مرتبط بزوج آخر يجب ان يجد الامانة والعفة من زوجته حتى ولو احبت غيره

ومثل هذا الحب يطلق الشعر . فقيس لبنى ومجنون ليلى كلاهما شاعر . وقد ورثنا عنهما اجمل الأشعار الخالدة فى المعانى السامية للوفاء والحنان .

وكلمة « اللوعة » هى احدى الكلمات الحميمة فى هذا الحب العذرى . اذ هى تعنى الشوق فى الم لذيذ . هو احتراق لا يلسع ولكنه يدفىء . والآم المحبين هى لوعات قد يضنون منها ولكنهم يلتذون ضناهم . وهم على الدوام محسودون على لوعتهم وضناهم .

والقليل من التامل فى الالم واللذة ، فى الحب واللوعة، يحملنا على الاعتقاد بأن كل الم ، اذا خف ، يعود لذة . وكل لذة اذا اشتدت ، تعود الما .

السنا نضحك من التجميش ونتألم من القرص ؟

***

والحب العذرى اكثره بل كله لوعة اذ هو فى صميمه الم لذيذ.

ذلك أن المحب يرتفع بحبه الى التضحية . فهو يخشى على حبيبته ان تفتضح . بل هو يخشى عليها الخيانة لمن ارتبطت به اذا كانت متزوجة . او يحب ان يصون عذريتها كما لو كان أخا او أبا . فهو لذلك يألم ويحس اللوعة ولكنه يرضاها ايثارا لحرمة حبيبته . ومثل هذا الحب يدوم طويلا . بل هو يخلد طيلة عمر المحبين اذ هو نار لا تنطفىء ابدا . نار تضطرم دون أن تشتعل .

ونستطيع أن نصف هذا الحب بانه فلسفى . من حيث ان الحكمة والتبصر والحنان وسائر ما يتصل بهذه المعانى تسوده ، كما أن لغته هى لغة الفن : شعر او رسم او لحن أو غناء ، ومن هنا عناية الامام ابن حزم الاندلسى بهذا الحب . فقد ارسل له كتابا جميلا يدعى «طوق الحمامة» . . وقد مات ابن حزم فى سنة ٤٥٦ هجرية وخلف لنا ثروة من الادب والفلسفة والشعر . ولكن هذا الكتاب هو اجملها وان لم يكن اثراها . وهو يعالج فيه سير المحبين ويقارن بين الحب المفاجىء والحب بالمطاولة . ويفضل التعفف والوفاء . والهجر والغدر . بل انه ليخص موت المحبين بفصل .

وهو ينكر الحب من نظرة واحدة ويقول عن نفسه : «وما لصق بأحشائى حب قط الا مع الزمن الطويل . وبعد ملازمة الشخص لى دهرا . واخذى معه فى كل جد وهزل » .

وهذا كلام حكيم يتبصر وينأى عن رعونة الحب . ذلك انه لا يحب وجها مشرقا او جسما منيفا . وانما هو يحب بعد ان ينفذ الى قلب حبيبته ويقرا عقلها ويعشق شخصيتها . وكل هذا يحتاج الى وقت لا تكفيه «نظرة واحدة »

ولذلك يرى ابن حزم ان الانسان لا يستطيع الحب لاثنتين ويقول : « واما ما يقع من اول وهلة ببعض اعراض الاستحسان

الجسدى ، واستطراف البصر الذى لا يجاوز الالوان ، فهذا سر الشهوة ومعناها على الحقيقة... وهى على المجاز تسمى محبة ، لا على التحقيق . واما نفس المحب فما فى الميل به فضل يصرفه من اسباب دينه ودنياه . فكيف بالاشتغال بحب ثان ؟ »

وهو يذكر لنا وفاء زوجة يذكر اسمها واسم زوجها على انه كان يعرفهما فيقول انهما كانا على حب عظيم . فلما مات الزوج « بلغ من اسفها عليه ان باتت معه فى دثار واحد ليلة مات وجعلته آخر العهد به ووصله . ثم لم يفارقها الاسف بعده الى حين موتها »

ويروى لنا ابن حزم قصة موجزة عن غرام موجز . ونحن نحس بعد أن نقراها ، كما كتبها بقلمه ، اننا نود لو نساله كيف رضى امام الأندلس بروايتها . فهو يقول :

« حدثنى ثقة من اخوانى ، جليل من اهل البيوتات ، انه كان قد علق فى صباه جارية فى بعض دور آله . وكان ممنوعا منها فهام عقله بها . قال : « فتنزهنا يوما الى بعض ضياعنا بالسهلة غربى قرطبة مع بعض اعمامى ... الى ان غيمت السماء واقبل الغيث . فلم يكن من الغطاء ما يكفى الجميع . فامر عمى ببعض الاغطية فالقى على وامرها بالاكتنان معى . فظن بما شئت من التمكن على اعين الملأ وهم لا يشعرون . وياله من جمع كخلاء واحتفال كانفراد .. » وهو يحدثنى بهذا الحديث واعضاؤه كلها تضحك . وهو يهتز فرحا على بعد العهد وامتداد الزمان »

وقبل ان اترك ابن حزم يجب ان انقل منه هذه الحادثة التى يرويها عن نفسه وكانه قد انتشى بالذكرى التى تلهمه اجمل الكلمات وابلغ المعانى . قال :

« ولقد ضمني المبيت ليلةفى بعض الازمان عند امراة من بعض معارفى ، مشهورة بالصلاح والخير والحزم ، ومعها جارية من بعض قراباتها من اللائى قدنشمتها معى النشأة فى الصبا . ثم غبت عنها اعواما كثيرة . وكنت تركتها حين اعصرت . ووجدتها قد جرى على وجهها ،، الشباب ففاض واساب . وتفجرت عليها ينابيع الملاحة فترددت وتحيرت . وطلعت فى سماء وجهها نجوم الحسن فأشرقت وتوقدت . وانبعث من خديها ازاهير الجمال فنمت واعتمت ... وبت عندها ثلاث ليال متوالية . ولم تحجب عنىعلى جارى العادة فى التربية . فلعمرى لقد كاد قلبى ان يصبوويئوب اليه مرفوض الهوى ، ويعاوده منسى الغزل . ولقدامتنعت بعد ذلك من دخول الدار خوفا على لبى ان يزدهيهالاستحسان »

***

وهذا الكتاب « طوق الحمامة »قد كان ايحاء جديدا للثقافة الاوربية فى القرن الحادى عشر . فقد كانت الاندلس فىذلك القرن القطر المتمدن الوحيد فى أوربا وكان العرب الذين يقطنونها على اتصال باقطار العالم العربى من سمرقند شرقا الى المحيط الاطلنطى غربا . فى حين كانت الثقافة الاوربية لاتزال قروية لا تعرف شيئا من التجارة العالمية التى تبعث الحضارة بتبادل السلع وتحيى الثقافة بالتبنى للغريب من الافكار والعادات .

ولذلك كانت الحرية الفكرية على أعلاها عندالاندلسيين وكانت الفنون كذلك على أتقنها وكان الاوربيون يأخذون من الاندلس علوما وآدابا وفنونا .

وكان « طوق الحمامة » هذا بعض ما أخذوا . فعرفوا منه الحب العفيف ، الحب العذرى ، وألفوا القصائد والقصص عن النبلاء الذين يخرجون لانقاذالعذارى وحماية السيدات، وفشا من ذلك فن القصص الغرامى الخيالى الذى عم فرنسا فىالقرون الوسطى . وكان له طابعه، ليس فى الأدب الفرنسى فقط ، بل فى

الاخلاق الفرنسية ، أخلاق الحب بين المتمدنين •

وهذا القصص الغرامى الذى فشا بايحاء كتاب الامام ابن حزم قد ارتفع بالشهوة الجنسية الى الحب العفيف وعين له أسلوب وجمل متعة الشباب وسعادة الجنسين ونص فيه على حق كان ينكر من قبل بحكم العادات والتقاليد •

قيمة الحب للحياة الفنية

كلمة « الحب » من الكلمات التى تتعدد معانيها وتختلف . ولذلك احتاج مترجم الانجيل الى ان يستعمل كلمة « المحبة » للمعنى المسيحى الخاص . وهذا التعدد يتضح عندما يقول احدنا: انه يحب البرتقال . او يحب زوجته . او يحب النظام . او يحب الله . فاننا هنا ازاء طائفة من المعانى المختلفة التى كان يجب أن يكون لكل منها كلمة خاصة تبعث احساسا خاصا .

ونحن نقتصر هنا على معنيين هما الحب الجنسى والحب البشرى . فان كثيرين من المفكرين يرجعون حب البشر ، الاخاء والصداقة والتعاون ، الى الحب الجنسى . كأن هذا هو الجذر الذى اليه ترجع عواطفنا البشرية السخية . ولكن الحقيقة ان كلا منهما يرجع الى اصل منفصل من الآخر . فغاية الحب الجنسى هى التناسل . وغاية الحب البشرى هى تكبير الشخصية والتعاون الاجتماعى والرقى العائلى والنمو الذهنى .

وليس هذا الذى نسميه « حبا جنسيا » ضروريا للتناسل . فان السمك مثلا يتناسل بالملايين . ومع ذلك لا يعرف الحب . لأن الذكر يلقى أحيانا بجرائيمه فى الماء . وكذلك الانثى تلقى بويضاتها فى الماء مثله . ثم يتم التلاقح فى الماء دون أن يعرف الذكر الانثى .

وعندما نتأمل الحيوان وقت التلاقح نجد ان العاطفة الغالبة والتى تتضح من سلوكه هى عاطفة الافتراس والاكل والالتهام . فان الذكر يفترس الانثى وليس بين الاثنين حنان . واحيانا ينقلب التلاقح الى شجار وقسوة وافتراس . واذا كان الحب الجنسى بين البشر قد خالطته رقة وحنان او عطف فانما مرجع ذلك الى الثقافة الاجتماعية التى ارتقت بها عواطفنا .

اما الحب البشرى فمرجعه الى ينبوع آخر هو حب الأم لأولادها

وحب هؤلاء لها . وهذه العاطفة بعيدة جدا عن الحب الجنسى . اذ هى تنضح حنانا ورقة وهى تحمل الام والابناء على أن يترافقوا ويتعاشروا ويتعاونوا .

والانسان البدائى كان دائم الارتحال . فكانت الأم مع أولادها ترعاهم وتربيهم . وكان تعلقهم بها يحملهم أيضا على أن يتعلق احدهم بالآخر . فاذا ماتت الأم مثلا بقى الأبناء على قواعد رفقتهم السابقة يتعاشرون ويتعاونون . وهذه الأخوة بينهم هى أصل الاخاء البشرى بل أصل المجتمع .

بل نستطيع ان نزيد هذا التمييز بان نقول انه اذا أحب الرجل المراة حبا عميقا بشريا فان هذا الحب يحول دون الحب الجنسى . كان هناك تناقضا بين الاثنين : الأول كله حنان ورقة . والثانى بعضه افتراس وقسوة.

وعندما نتأمل الحب الجنسى نجد انه غريزة ذاهلة . ولكن الحب البشرى عقل وضمير . ولذلك نحن نزداد وننمو بالحب البشرى الذى ترتقى به شخصيتنا. لأن هذا الحب يستنبط هنا احسن الخصال فى الحنان والرقة والظرف والكياسة بل أحيانا فى التضحية . وهذا الحب هو الذى يجعل الانسان انسانيا . وما ندعو اليه من اخاء بشرى ، أوما نقدره من خصال فى صديق ، أو ما نتعلق به من آمال نرضى بأن نضحى لتحقيقها ، انما كل هذا يعود الى الحب البشرى الذى كسبناه من عواطف الامومة والبنوة

قلنا أن الحب البشرى عقل وضمير . ولذلك نحن نزداد فهما بالحب . لان الحب ينبه الذهن ويوقظه . وهو هنا نقيض الحب الجنسى الذى ننساق فيه بالغريزة . ولذلك ايضا كثيرا ما نجد أن بذور العبقرية ، أو على الاقل النبوغ ، تعود الى الحب . لأن الصبى الذى يحب الطبيعة ويجمع الأحياء او الزهور او الأصداف

والمحار ، هذا الصبى يحدوه حب بشرى قد استحال الى حب للطبيعة ينبه ذكاءه ويبسط آفاقه ويكبر شخصيته . وهو بهذا الحب اقرب ما يكون الى النبوغ او العبقرية . لأنه ، بالحب ، يرى اكثر ويفهم اكثر . كما ترى الام فى ابنها وتفهم اكثر مما يرى غيرها فيه للحب الذى تحس به نحوه .

والحياة الفنية تطالبنا بأن نجعل الحب شعارنا . لأنه ، اى الحب ، يملأنا تفاؤلا فنبتعد عن الخوف والقلق والشك ونستكثر من الأصدقاء أو على الأقل نلتزم اصدقاءنا ونخدمهم فى سرور . واذا جعلنا اساس علاقاتنا بالناس والدنيا حبا فاننا لا نسأم الحياة ، بل نجد كل ما فيها يدعو الى العطف والفهم .

ولكن الحب مثل الشجاعة ، يحتاج الى تدريب . وصحيح اننا نكسب شيئا من الحب العالمى اى من علاقتنا بالأم والاخوة والاب . ولكن هذا الذى نكسبه عفوا فى طفولتنا وصبانا يحتاج الى الرعاية والتنمية . ونستطيع ان نتعود الحب بالصداقة والتعاون والضيافة والخدمة حتى ولو كانت طفولتنا قد اهملت او كانت الفرص فيها قليلة لتنمية الحب .

والرجل الذى تنبعث فيه عاطفة الحب نحو المجتمع او البشر هو أقرب الناس الى السعادة وهو ابعد الناس عن الشقاء . وكلمة السعادة من الكلمات التى يجب الا نخلطها باحساس السرور ولكن الحب يبعث السعادة الحقة الدائمة اكثر مما يبعثها السرور الزائف الزائل

ومن هنا تأكيد الاديان جميعها للحب . اذ لا يمكن أن يتأسس دين على غير الحب . لأن الدين ينشد السعادة . والحب ، بجميع مركباته الذهنية والعاطفية ، هو أعظم الأسس للسعادة . وعبارة « المركبات الذهنية والعاطفية » تحمل معنى توضيحيا للحب .

ذلك أن الحب يحتاج الى تربية كما يحتاج الى مرانة . ويجب لذلك ان يكون مثقفا من ناحية بالتربية وعمليا من ناحية أخرى بالمرانة .

فنحن نعرف ان الرجل المثقف الذى يتجه الوجهة العالمية ويدرك الدلالة للتطورات التاريخية ويداب طوال عمره فى درس الشئون البشرية ، مثل هذا الرجل المثقف يحب ، لانه يعرف ، اكثر من غيره . وقلبه أسمح لانه اعرف . فاتساع المعرفة سبيل الى اتساع الحب . ولهذا السبب أيضا يعد الأدب فى صميمه ، والفلسفة فى صميمها ، دعوة الى الحب البشرى والخير العام .

ولكننا نحتاج، كى نجعل الحب مزاجنا النفسى واتجاهنا الاخلاقى الى المرانة . اى يجب ان نؤدى عملا ما يحمل معنى الحب . وكل منا يستضىء هنا بمعارفه السابقة لانه على قدر هذه المعارف يكون الضوء المنير الذى يعين الهدف والسلوك . وقد يقنع احدنا بالاحسان لمعاونة الفقراء . او الانضواء الى جمعية لمنع القسوة على الحيوان او معاونة الصبيان المشردين او نحو ذلك . ولكن هناك من يعرف اكثر لأن ثقافته اوسع واعمق . وهو لذلك انفذ بصيرة فى الاسباب التى تجر البؤس والمرض والرجعية والجهل . وقد يجد ، لهذا السبب ، أن الدعوة الاشتراكية والكفاح لنشرها ، خير الأعمال التى يجب ان يقوم بها لأنها جماع الاصلاحات التى ينشدها غير متقطعة مجزاة . وقد يجد عملا آخر . ولكن المهم اننا نحب بممارسة الحب . وأن هذه الممارسة تزيد حبنا للبشر كما تزيدنا فهما وسعادة . ولو شاء أحدنا أن يصف الدين الذى يؤمن به دون ان يعين اسمه بانه دين الحب ، لقال احسن ما يقال وقصارى ما يقال واسمى ما يقال عن الدين .

التعقل في التناسل

ليس هناك مأساة اعمق ألمـاواشد لوعة من ان يرى الابوان طفلهما وهو ينأى عاما بعد آخرعن النمو البشرى السوى . وجه يتكتل بلحم يشبه الجلد الثخين وعينان مغوليتان . وهـذا الى لجلجة تشبه الخرس مع عجـزعن ترتيب الكلمات وقصور عن فهم المعانى ثم ركود عام فى الجسم والذهن ثم توقف عن النمو حوالى سن العاشرة او بعد ذلك بقليل

ونحن الآباء عرضة لان نعقب مثل هذا الطفل . ولكن الاحتمال ضعيف بحيث يقارب الانتفاء . وقد اعقبت المؤلفة الامريكيـة بيرل بك صاحبة قصة « الارض الطيبة » بنتا بلهاء من هـذا الطراز المغولى وقد عنيت بهـا كثيرا تامل ان تشفيها وتردها الى سواء البشر . ولكنها لم تفلح . واخيرا سلمتها ، وهى فى لوعـة الشوق اليها والحزن عليها ، الى مصلحة تقتضى فيها سائر حياتها بعيدة عنها

وقد ذكرت هذه القصة كي أبين ان التناسل لايمكن ان يترك جزافا كأنه حق لكل انسان . فاننا نعقب الحسن والسيىء من الابناء . لانه اذا كان الزواج حقا للزوجين فان التناسل ليس حقا لهما

ومع ان هذا الحادث الـذى وقع لبيرل بك لايمكن الحذر منه واتقاء وقوعه فان هناك مايقاربه من الاستهتار التناسلى . ام بلهاء من أسرة اشتهرت بالبـلاهة ولكنهـا ثريـة تتزوج وتعقب للشعب نحو سبعة او ثمـانية اشخاص من البله العاجزين او هى قد تعقب الحسن من الاطفال ولكنها ، لانها بلهاء ، تسىء اليهم فى التربية وتعودهم رجـوعا واستجابات مـؤذية تجعلهم ينشأون نشأة غير اجتماعية

نحن البشر لا نختلف عن الحيوان • كل عائلة مناهي سلالة قائمة منفصلة لها صفاتها الحسنة او السيئة • ويجب ان نحذر الاصهار الى عائلات اشتهرت بالبلاهة كما نحذر الاصهار الى عائلات اشتهرت بالدمامة • اى يجب ان نطلب الجمال والذكاء معا فيمن نتزوج

ومع ان مؤلف هذا الكتاب يؤمن كثيرا بقوة الوسط وتأثير التربية والقدوة الاولى ايام الطفولة فانه مع ذلك لايستطيع ان ينكر الوراثة اذ هي حقيقة بارزة لايمكن اهمالها

وثق ايها القارىء انك حين تتزوج وتعقب فان ابنك قد يكون أشبه بخاله او عمه منك انت • ولذلك انت ، بيولوجيا ، تتزوج العائلة كلها وليس الفرد الذى يشاركك فى البيت وحده

واعتقادى ان اليوم ليس بعيدا حين تتدخل الحكومات فى التناسل وتقرر لكل فرد عددا من الاطفال يتناسب مع مواهبه فى الجمال والذكاء • بل حتى قد تمنع البعض من التناسل ثم تكافىء الآخرين حتى يزيدوا من عدد ابنائهم

وهناك حكومات كثيرة تمارس هذا المنع الآن • بل احيانا تخصى هذه الحكومات الآباء اى تعقمهم حتى لايتناسلوا اعتقادا بأنهم لو فعلوا لكان ابناؤهم على غير ماتحب الدولة من كفاءة عقلية او صحية فى ابنائهم

ونحن العاديين يجب ان نتعقل ونمارس التناسل وفقا للحال المعيشية التى نكون فيها • فاذا كنا فقراء واحوال العيش غير ميسرة للتعليم والصحة والرفاهية فيجب ان نتناسل فى اقتصاد • واذا كنا أثرياء فلا بأس من التناسل بلا حساب غير حساب الصحة فى الوالدة

ولكنى لا أدعو الى تحديد النسل باعتبار هذا التحديد خطة عامة تعمد اليها الحكومة ويتبعها الشعب • لان مثل هذه الخطة

تعد تدميرية تعمل للهدم وليس للبناء . وهى تبعث على الركود الاقتصادى بدلا من الاقدام

ففى مصر مثلا نحو ثلاثة ملايين فدان يمكن اصلاحها كما اننا نستطيع ان ننشىء نحو الفى مصنع تستوعب نحو ستة او سبعة ملايين من العمال . واذا أتممنا هذه الانشاءات الاصلاحية فان مصر تستطيع ان تستوعب نحو ثلاثين مليونا يعيشون فى رغد ورفاهية

وبكلمة موجزة نقول انه كى نكون سعداء يجب ان نتوقى الزواج من فتاة ناقصة الذكاء . ويجب ان نحدد النسل بحيث نستطيع تربية الابناء دون ارهاق لنا او اهمال لهم

بل أقول اكثر من ذلك . وهو انه اذا وجدت الام او الاب ان هناك فيمن ولد لهما من أطفال اتجاها نحو ضعف العقل او الجسم فعليهما ان يكفا عن الزيادة فى التناسل . ويحسن الاب عندئذ اذا عمد عن اختيار وتعقل الى التعقيم الذى يتيح له الاتصال الجنسى ولكن مع العقم التناسلى

الرجل والمرأة والزواج

نحن نعيش فى بيوتنا أكثر مما نعيش خارجها . ولن تهنأ حياتنا لهذا السبب الا اذا عنينا أكبر العناية بأن نجعل بيوتنا حاوية لصنوف الراحة والرغد . وحياة العزوبة هى حياة ناقصة قليلة الاختبارات والمتع . والمتزوج قد لايطول عمره أكثر من العزب ولكن حياته أعرض . وهى أعرض بالمسرات بل والاحزان التى لا يعرفها العزب

ومعظم العمر نقضيه مع زوجة قد عرفناها فى الاغلب بعد سن العشرين أو الثلاثين ، وقد عاش كل منا قبلا فى بيئة تختلف عن البيئة التى عاش فيها الآخر ، ولذلك ليس بعيدا أن نصطدم وأن تحفل الحياة الزوجية بالمتاعب .

ولكن هناك ما هو أخطر من هذا ، ذلك اننا نعيش فى مجتمع اقتنائى تحاسدى يجعل الانانية فضيلة ويحملنا على المباراة واقتناء المال . ثم يشملنا هذا الروح فتعود الانانية والرغبة فى الخطف والاقتناء والحسد والحقد والبعد عن الحب والتعاون ، كل هذا يعود كما لو كان هو الطبيعة البشرية الاصلية . فاذا تزوجنا عاملنا الزوجة وفق ماتعلمنا وتدربنا عليه فى المجتمع ، فنطالب الزوجة بالخضوع ، ونطالبها بأن تخدم ملذاتنا ، ثم نلتذ ملذاتنا على انفراد نفسى وفى خطف ونهب كما كنا ، ولا نزال، نعيش فى المجتمع

وليس هذا المجتمع الذى وصفنا جديدا ظهر فى عصرنا ، اذ هو قديم قد رسخت أخلاقه فى سلوكنا وتصرفنا ، وهو يشقى حياتنا الزوجية . وله علامات تخفى أحيانا على الناقد فضلا عن عامة الناس . فان أتوقراطية الرجل ورغبته فى أن تكون زوجته أداة للذة يقابلها دلال المرأة وغيرتها الجنونية من الاوهام والحقائق . وكلاهما يسير بروح الاقتناء والخطف كما لو

كان كل منهما تاجرا يشترى رخيصا كى يبيع غاليا

وأسوأ ماتعلمناه من هذاالمجتمع الانانى التحاسدى الاقتنائى الذى نعيش فيه ، اننا ننظر الى المرأة جنسيا بدلا من أن ننظر اليها انسانيا . فهى امرأة فقط وليست انسانا ، نعنى اننا نقتنيها كى تخدم ملذاتنا وتغسل اولادنا فهى ليست الانسان المتعاون الصديق الزميل الذى نرافقه ونصادقه ، ولذلك كثيرا ماتستحيل البيوت الى مطاعم أو فنادق للأكل أو النوم فقط . وهذا المنظر يوهم الكسب للرجل ، ولكنه فى صميمه يعود عليه بالخسار أيضا حتى من ناحية اللذة الجنسية ، اذ هى فى هذا النظام تتقلص الى الخطف والنهب فتجرى وكأنها صرع تشنجى ، أو كأنها طرب جنونى ، يغمر الجسم فى عجل ثم ينطفىء فجأة

لذة عابرة خاطفة لانذكرها بالحنان والحب والصداقة ولكن بالخطف وأحيانا بالقسوة والاغتصاب . وكثير من الشذوذات الجنسية لهذا السبب يعود الى المبالغة فى الانسياق فى الصفات الاجتماعية التى يطالبنا بها النجاح فى الكسب والوجاهة والتفوق . اذ أن هذه جميعها تحتاج الى الخطف والنهب والقسوة والحسد والانانية بل أحيانا الى الغش . والشذوذات الجنسية هى فى صميمها غش .

واللذة الجنسية هى فى صميمها ، فى أسلوبها نقطة التبلور لاتجاهنا الاجتماعى واخلاقنا الاجتماعية فليذكر هذا كل شاب وكل فتاة .

ومن هنا الكثير من الرذائل التى تحسب فى ظاهرها رذائل زوجية ولكنها فى باطنها رذائل اجتماعية . فان الشاب الذى يخشى أن يتزوج الفتاة المتعلمة انما هو فى صميمه يخشى المساواة التى لم يتدرب عليها فى المجتمع . اذ هو نشأ فى مجتمع

قد غرس فيه الرغبة فى التفوق والتسلط والانانية والخطف فكيف يمارس كل هذه الصفات فى حرفته ومعاملته وينساها فى الزواج ؟ فهو يعامل زوجته تلك المعاملة الحميمة التى تعلمها من البغى حين كان يؤدى ثمن لذته بالقرش والمليم ويخطف منها هذه اللذة خطفا . وهذه المعاملة ترسخ فيه فلا يعرف كيف يغيرها. ولو أنه كان قد نشأ بروح التعاون والحب والمساواة لكانت اللذة الجنسية نفسها لاتتم الا بهذه الصفات ، وعندئذ كانت تكون متبادلة هنيئة للزوجين .

ولهذا أصبح الزواج كأنه صفقة حيوانية تتم بين الرجل والمرأة لايسودها الحب والثقافة . أجل، الحب والثقافة . وكلاهما لايعرفه الحيوان .

ولكن حتى المقارنة بيننا وبين الحيوان لاتدل على أن الكسب فى جانبنا ، لأن أقل مايقال فى الحيوان أنه ينساق بغريزته الساذجة الفطرية ولكننا نحن نفسد هذه الغريزة بعادات المجتمع الانفرادى القائم على الخطف والخوف والنهب والحسد والاغتصاب . فنحن لانتعاون فى اللذة الجنسية بل نتخاطف فى طرب جنونى وصرع وقتى سرعان مانفقدهما ونعود الى مايقارب اليأس والجمود والنفور.

ولن يتحقق الهناء الزوجى الابعد أن يعيش النساء والرجال فى تعاون ومايجلبه هذا التعاون من حب وأخاء ومساواة وطمأنينة واستبشار بالمستقبل . لأن المجتمع الذى نعيش فيه فى الوقت الحاضر يشقينا بالقلق ، فنحن نقلق ونخاف ، نخاف الفقر والمرض والهزيمة فى المباراة الاقتصادية والافلاس ، كل هذه الصفات تنتقل الى العلاقة الجنسية ، فتعود هذه العلاقة قلقة غير مطمئنة .

اى أن نظامنا الاجتماعى ينتقل بأساليبه الى نظامنا الجنسى . فاذا كنا نخاف الدنيا ونهرول ونخطف ونقلق ونحسد ونؤثر

أنانيتنا على مصلحة اخواننا في المكتب والمتجر والسوق والمصنع، فاننا ننقل كل هذه الصفات الى العلاقة الجنسية ، فلا نستمتع بالغريزة الفطرية التى يستمتع بها الحيوان بل نفسدها باحساس سيىء من حياتنا الاجتماعية السيئة .

ولذلك نحتاج ، كى تهنأ الحياة الزوجية وتزول الشذوذات الجنسية ، الى مجتمع تعاونى سوائى يقوم على الحب وليس على المباراة ، أى يجب ان نعيش فى نظام اشتراكى ويجب أن يتعلم الرجال والنساء منذ ولادتهم الى وفاتهم ، الاختلاط والتعاون والمساواة ، ويجب ان نطمئن على عيشنا فلا يكون هناك قلق يغمر شخصيتنا ويحملنا على الهرولة والخطف : هرولة وخطف فى المجتمع يؤديان الى هرولة وخطف فى التعارف الجنسى .

فاذا تم هذا أى اذا تغيرت « الطبيعة » البشرية ، وهى فى صميمها طبيعة اجتماعية ، واذا تساوى الرجال والنساء ، عمت الطمأنينة وزالت الرغبة فى التسلط وعندئذ تهنأ الحياة الزوجية وترقى على أسس من التعاون والحب والثقافة ، فلا تكون غريزية كالحيوان ولا شقية بالاحساس الاجتماعى السيىء الحاضر . وتخرج المرأة من أنثويتها الضيقة الى ميدان الانسانية الواسع .

احترام المرأة

كان هنريخ هاينيه من أدباءأوربا الذين كتبوا النثر بمعانى الشعر وايقاعه ، وهو المانى الاصل ، فرنسى الاسلوب ، انسانى النزعة ، وكانت الامراض قد حطت عليه والزمته السرير سنوات وكان يقابلها بابتسامات التهكم وكلمات المزاح التى اثرت عنه كأنها من الخوالد التى لايزال يتنادر بها الادباء ويتفكهون بمعانيها الانيقةالعميقة .

ولما رأى ان الوفاة قد اقتربت، وأن زوجته لاتزال فى شبابها كتب وصيته وشرط على زوجتهأن تحرم ميراثه الا اذا تزوجت بعده .

وهذا العمل هو نقيض مانرى احيانا فى بلادنا حيث تحرم الارملة الميراث اذا تزوجت ، لانالزوج يغار وهو فى قبره من زواجها ، وهو يريد أن يتحكمفى مصيرها حتى عندما تكون الديدان قد تولت أفناء جسمه.

وهذه الانانية النكدة التى يعامل بها بعض الازواج زوجاتهم عندنا والتى يفرضون بها عليهنعزوبة قد تلقى بهن فى المآزق الاجتماعية الخطرة، قد قابلها هاينيه بغيرية سخية ، اذ أصر على ان زوجته الشابة يجب أنتستمتع بزواجآخر عقب وفاته، يرافقها سائر حياتها ويخفف‌عنها أعباء الدنيا التىربما لم تكن لتستطيع تحملها وحدها وهى أرملة .

اننا فى مجتمعنا نعتاد عاداتالبخل خشية المستقبل المجهول، ويعود هذا البخل كزازة نفسيةوانطواء عاطفيا ، كأن شعارنا فى الحياة « أنا وحدى » ويسرىهذا الاحساس فىكياننا ويسيطر علينا فنساق به ، ونحاول أن نجعل هذا الاحساس خالدا بشروط وقيود على زوجاتنا بعدالوفاة ، فنمنع ونمنع بالوقف والوصية ، ونترك البغض والكراهية بين الوارثين ، ثم نشرط

الشروط والقيود على الزوجة بحيث لا تستطيع ان تأكل لقمة مما خلفنا الا اذا حرمت نفسها الاستمتاع بالزواج .

حبذا هذه الوصية التى تركها هاينيه تنبه الانانيين الى قيمة السخاء فى النفس ، والى اننا حين نترك الدنيا يجب أن نخلف وراءنا جوا من الخير والحب بدلا من هذه القيود التى يتألم منها الاحياء حين يكون واضعوها عظاما رميمة فى القبور .

وهذا السلوك الذى يأخذ به بعض الازواج فى مصر ، حين يشرطون على الزوجة الا تتزوج بعد وفاتهم والا حرمت الميراث هو فى صميمه ذلك الاسلوب الشرقى الذى كان يعم اقطار اسيا مثل الصين أو الهند حين كان الاباء الصينيون واليابانيون يبيعون بناتهم . أو حين كانت الارملة الهندية يطلب منها ان تحرق نفسها عقب وفاة زوجها . واذا كان هناك اختلاف بيننا وبين آسيا فهو اختلاف الدرجة فقط . وفى قرى الصعيد لا يزال الزوج ينادى زوجته بقوله « يامرة » فقط . بل احيانا نرى نعى المتوفين فى الصحف فنجد ان الزوجة توصف بانها «حرم» فلان كأن ذكر اسمها عار .

وعجيب ان يبقى مركز المرأة فى مصر على هذا الانحطاط بعد الجهود العظيمة التى بذلها قاسم أمين وهدى شعراوى ودرية شفيق وآلاف الطبيبات والمحاميات والمعلمات والممرضات والممثلات اللائى خرجتهن جامعاتنا فانتشرن فى آفاق وطننا وملأنه بالخدمة البارة .

لقد عرفت هدى شعراوى وتعقبت نشاطها الاجتماعى وتضحياتها العظيمة ، ومنشآتها العديدة لخدمة المراة ، ووقفت ذات مرة فى مقر جمعيتها وناديت بحق المرأة المصرية فى انتخابات البرلمان ، وكان مما قلته ، ولا يزال صحيحا للاسف ، ان للفراش الذى يكنس هذه القاعة التى القى فيها كلمتى ، حق

الانتخاب ، ولكن سيدته التي انشأت هذه القاعة والتي هو موظف عندها ليس لها هذا الحق .

ولو اننا كنا على شيء من التقدير والشكر لهدى شعراوى لما كنا توانينا في تعيينها وزيرة ، وكان هذا العمل جديرا بأن يرفع اسم مصر الى مصاف الامم العصرية .

ومما يؤسف له كثيرا أن المجلس البلدى الجديد للقاهرة لم ينص في قانونه على حق المرأة في الانتخاب له ، كأننا مصرون على أن نحرمها حقوقها الديمقراطية . وكذلك فعلت لجنة الدستور

وذكرت الصحف قبل أيام أن بعض الطالبات في الجامعة أردن أن يترشحن في انتخاب الاتحادات ، فرفض طلبهن ، ومن قبل ذلك طلبت احدى آنساتنا المحاميات أن تلتحق بوظيفة في النيابة العامة فرفض النائب العام طلبها

وهذه المواقف جميعها تدل على أننا مصرون على أن نبقى أمة شرقية نقول بسيادة الرجل ونرفض المبادىء الديمقراطية التى تقول بها وتعيش على أساسها جميع الامم العصرية

ان عندنا في الوقت الحاضر نحو ألفى طالبة في الجامعات ، وعندنا نحو خمسة آلاف طالبة في المدارس الثانوية ، وبدهي أن هذه التربية التي يحصلن عليها تؤهلهن لان يدرسن مشكلاتنا الداخلية والخارجية أكثر مما يستطيع الفلاح المصري في حالته التعسة الحاضرة ، ونحن نفقد مقدارا عظيما من الذكاء والوطنية والثقافة بحرمانها حق الانتخاب للبرلمان وللمجالس النيابية

***

وأثمن العواطف البشرية هو الحب . ولكن الحب يحتاج الى التكافؤ . ولا يمكن شابا أن يحب فتاة الا اذا أحس أنها على مستواه الاجتماعي أو قريبة منه . فاذا احتقرنا المرأة وجعلناها دوننا في المقام الاجتماعي فاننا باحتقارنا هذا ننزل بالحب الى الحضيض بل

نكاد نلغيه . ولا يمكن أن نقول عن الصعيدى الذى ينادى زوجته بقوله : « يا مرة » أنه يحب زوجته هذا الحب الذى يحس به الرجل المستنير الذى عرف زوجته قبل الزواج واحترمها لمكانتها الاجتماعية وتربيتها المدرسية أو الجامعية

ان الاول قد يشتهى زوجته ويستخدمها ولا يحس أنه يحتاج الى أن يتفاهم معها أى ليس بين نفسيهما أنسة . أما الثانى فانه يجعل حبه تفاهما بل هو يوقن أن هذا التفاهم أساس الحب بينه وبين زوجته

وهذه الاستهانة بالزوجة ، وهذا الاسراف فى الطلاق ، وهذا الجموح الى الزواج بثانية او ثالثة ، بل هذا الحرمان للبنات فى الميراث ، وأخيرا هذا النفور من منح المرأة حق الانتخاب والترشيح للبرلمان ، كل هذا برهان على أننا مازلنا شرقيين مثل الصين والهند واليابان قبل أن تتخلص هذه الامم نفسها من هذه العادات الشرقية

ان عاطفة الحب سوف ترتفع فى مصر حين تأخذ المرأة المصرية مكانها الاجتماعى لانها ستحترم عندئذ . والاحترام أعظم مايهيىء للحب الشريف

كيف نصادق زوجاتنا ؟

الصداقة ضروريه لكل انسان ، اذ أننا نجد من الصديق سلوى ومؤانسة وانحيازا نحتاج اليها فى حالى الضيق والسعة على السواء .. ونحن نتخير اصدقاءنا عادة بحيث يتفقون معنا فى الرأى ، او يتكافأون معنا فى الثقافة وأسلوب العيش .. وبعيد أن نصادق من نختلف معه فى كل هذه الاشياء

وكثيرا ما نتجنب حتى أقرباءنا بل اخوتنا اذا وجدنا اننا لسنا واياهم على وفاق فى أسلوب العيش او الرأى ، او العقيدة ، أو الثقافة ، أو الدرجة الاجتماعية

وفى مصر حيث لايزال الاتجاه العام يميل الى تمييز الشاب على الفتاة فى التعليم ، نجد ان التكافؤ الثقافى بين الزوجين معدوم وأن الهوة بينهما كبيرة ،ومن ثم تكاد تنقطع بينهما اسباب الصداقة

والرجل قد يعيش مع زوجته نحو أربعين او خمسين سنة . وليس هذا العيش سهلا اذا لم تكن هناك صداقة تربطهما . ولذلك غالبا مايتجه الرجل الى خارج بيته حيث الاصدقاء من الرجال يقاعدهم فى المقهى ، اوفى النادى ، ويجد فيهم بديلا من الزوجة .

وفى أوربا تتعلم المرأة كالرجل تقريبا ، ولذلك يتكافأ الزوجان فى الثقافه ، فتصبح المرأة واذا بها ليست زوجة فحسب ، بل صديقة لزوجها ايضا . يشتاق كل منهما الى رؤية الآخر ، ومجالسته ، ومحادثته،ويخرجان معا ، ويقرآن الكتب التى يشتريها أحدهما معا ، ويناقشان موضوعاتها معا .

والى أن نصل الى هذه الحال ،أى الى أن نسوى بين تعليم الشاب والفتاة ، بلا تفرقة أو تمييز ، نحتاج ، نحن الازواج ، أو المرشحين للزواج ، الى أن نرفع زوجاتنا الى مصفنا فى

الرأى والمعرفة والثقافة ، وليس هذا بالامر الشاق كما يتوهم القارى.

والمهندس مثلا لايحتاج الى تعليم زوجته دقائق الهندسة الآلية أو الكيماوية .. والمحامى ليس بحاجة الى أن يشرح لزوجته فقه القانون الرومانى .. والطبيب لايحتاج الى أن يدرس لها الفسيولوجية .. ليس هذا ضروريا وان كنا قد رأينا أزواجا استطاعوا ان يشركوا زوجاتهم حتى فى هذه الاشياء الفنية !.

لسنا فى صداقتنا لزوجاتنا، نحتاج الى كل هذا وانما نحتاج الى أن نتحدث اليهن عن شئوننا المهنية ، حتى نثير استطلاعهن ونبعث فيهن الشوق الى التعرف على أعمالنا

وأولى من هذا وأسهل أن نجعل الجريدة ، والمجلة ، والكتاب بعض أثاث البيت ، نشتريها فى عناية ، ونختار منها الاحسن والانفع ونقرأها مع زوجاتنا ونناقش مافيها من شؤون سياسية و اجتماعية . وبهذه الوسيلة يتقارب الزوجان تقاربا ذهنيا ، ويتفقان على مبدأ فى الرأى والعقيدة

وقد يقول القارىء ان الحديث عن السياسة او قراءة الجريدة ليس كل شىء فى التكافؤ الثقافى الذى يؤدى الى الصداقة .ولكن هل هذا القول صحيح ؟

أليست السياسة كل شىء فى ايامنا هذه ؟ أليست هى التى تسيطر على حديثنا وتثير اهتمامنا؟

والكلام فى السياسة هو فى عصرنا هذا حديث فى العلوم ، والاجتماع ، والاقتصاد معا .. فالقنبلة الذرية ، والغلاء ، والاستعمار ، والانقسام الدينى فى الهند ، وأثمان البترول ، والتأمين من المرض ، والطيران ، واضراب العمال ، كل هذا وغيره قد أصبح من صميم السياسة

ومتى شرعت الزوجة ، التى لم تلق عناية كبيرة قبل

الزواج بتعليمها ، فى قراءة الجريدة مع زوجها ، ووجدت منه المفسر والموضح الذى يستخلص لها العبرة ، فلن تمضى سنوات حتى تكون على تكافؤ يكاد يكون تاما مع زوجها ، نورا وعرفانا ورأيا واطلاعا . وعندئذ تسعد هى بصداقته كما يسعد هو بصداقتها

أعرف رجلين يختلفان فى المهنة وأسلوب العيش تزوجا أختين على قدر متساو من التعليم . وهو تعليم ابتدائى قليل النفع سريع الزوال . ولكن أحد الزوجين جعل زوجته شريكته فى المجلة والجريدة . والآخر لم يبال بهذا الاشتراك . وقد مضت عليهما الى الآن نحو ١٥ سنة، فماذا كانت النتيجة ؟ الاولى تقرأ وتناقش وهى صديقة زوجها ، عندما يقعد اليها يجد ان الحديث يرتفع من القيل والقال الى موقف ترومان وايزنهاور ، واتجاه الوفد فى المعاهدة ، وموقف روسيا والقنبلة الذرية ، والفرق بين حزب العمال وحزب المحافظين فى الاستعمار الخ .

أما الاخرى فقد نسيت القراءة تماما ، ولذلك هجرها زوجها الى المقهى ، وأخذ يعيب عليها جهلها !

ولاشك ان المدارس فى المستقبل ، ستغنينا عن هذا الجهد عندما تعنى برفع مستوى الزوجة الى مستوى الزوج بمحو الفروق التعليمية بين الجنسين . ولكننا الآن فى حاجة لأن يعنى كل زوج منا بزوجته حتى يعلمها ، ويثير اهتمامها ، ويوقظ ذهنها .. وخير الوسائل الموقتة لذلك هى الجريدة والمجلة .. والمجهود الذى يبذله الزوج فى هذا السبيل ليس مجهودا ضائعا ، وحسبه أنه بذلك يكسب صداقة زوجته ، تلك الصداقة التى تفسح له آفاق السعادة الزوجية والهناء العائلى .

مجتمعنا الانفصالى

نحن اقل مسرات ومباهج من الاوربيين لأن هؤلاء يلقون الدنيا فى صراحة أكثر منا . ونحن بالمقارنة اليهم نوارب ونداری كأننا ملوثون بتهمة نخشى أن تفتضح. يعيش رجالنا منفصلين من النساء لهم مجتمعهم الخاص ومسراتهم الخاصة فاذا كانت هناك علاقة بين الجنسين فهى ليست علاقة الانسة والرفقة والزمالة الاجتماعية كما هى الحال فى الامم المتمدنة . وانما هى العلاقة الفطرية البدائية التى قد ترتقى احيانا الى انسة اجتماعية محدودة بالبيت . ولكن ما اصغرها واضيقها .

كل هذا لأننا نعيش فى مجتمع انفصالى ، الرجال ينفصلون من النساء .

والآثار التى يخلفها هذا الانفصال لاتقدر . فان الزمالة الزوجية التى تعد شرطا ضروريا للحياة السعيدة بين الزوجين ليست من المعجزات التى تباغتهما منذ العرس . لان هذه الزمالة تحتاج الى مرانة قد حرمها شبابنا وفتياتنا لأننا حرمنا الاختلاط بينهما قبل الزواج . فاصبح كل منهما منكفئا على نفسه له عقلية خاصة واحساسات نفسية خاصة كأنه مخلوق من كوكب آخر . ولذلك يلتقيان بعد الزواج وهما غريبان يحتاج كل منهما الى مجهود جديد للتوفيق فى الحياة المشتركة الجديدة .

والأوربيون يختلطون . يتعلمون وهم صبيان فى مدرسة واحدة . وأحيانا يتعلمون معا أيضا فى المدارس الثانوية . أما الجامعات فالتعليم على الدوام مشترك لا ينفصل فيه جنس عن آخر . وهذا الى الاختلاط بالضيافة التى لا تنقطع . ولذلك ينشأ الشبان والفتيات على دراية ومعرفة فاذا دخلوا فى بيت الزوجية كان دخولهم على نور وهدى وليس بمثابة الكشف عن أرض مجهولة كما هى الحالة الأسيفة عندنا .

ومنع الاختلاط بين الشبان والفتيات يعقب أثارا من الامراض النفسية يعرفها الدارسون لهذا الموضوع · لان هذا الفصل يجنح بالشاب أيام المراهقة الى الاستسلام للخيال الذى لا ترده ولا تحده حقائق الاختلاط ولمس الواقع · فهو ينتقل من خيال الى خيال . ويشطح ويتطوح الى أن يجد نفسه يوما وقد بعد الى منأى تخصب فيه الشذوذات الجنسية التى يشق عليه ، واحيانا يستحيل ، أن يتخلص منها حتى بعد الزواج ·

ونحن الرجال نحتاج على الدوام الى الاختلاط بالجنس الآخر منذ نولد الى أن نموت · لأن أقل مايقال فى تبرير هذا الاختلاط أنه هو الوضع الطبيعى الذى يجب ألا يناقضه وضع اجتماعى · والشاب المختلط ، زيادة على أن غرائزه تبقى سليمة بعيدة عن الشذوذات ، يرقى شخصيته بالاختلاط بالجنس الآخر · اذ هو يعنى بلباسه ولغته وصحته لأنه يحب أن يبدو فى احسن مايستطيع حتى يجلب الاعجاب والرقة من الجنس الآخر · بل هو يرقى ذهنه ويربى حواسه لهذا الغرض أيضا · ونحن نستطيع بالفراسة السيكلوجية أن نعرف الشاب المنفصل الذى لم ترتق نفسه وحواسه وذهنه بالاختلاط الجنسى

واول ما نجد فيه اهمالا فى هندامه اذ هو لا ينتظر اعجابا ولا يتكلف عناية لجلب هذا الاعجاب من الفتاة . وهو يؤمن بالشهوة لا الحب · لأنه لم يسامر قط فتاة ولم يعرف قط أن للفتيات ميزات روحية ونفسية وثقافية وذوقية وأنهن يمتزن أيضا بالشجاعة والتضحية والشرف ·

ومثل هذه الحال التعسة تكون أيضا عند الفتاة المنفصلة مع الاختلاف الذى تقتضيه ظروفها · بل هى أتعس من الشاب لأن حبسة البيت اسوا اثرا هنا . والشاب مع انفصاله لا يحبس فى بيته . ولذلك تفقد الفتاة حيويتها ويستولى عليها جمود ينقص أن

لم يلغ جاذبيتها · مع أن مواهبها الطبيعية فى الجمـــال قد تكون كبيرة جدا · ثم تسودها عقليـة المنع والانكفاف · لأن الاحجـام المادى يتشعع من بؤرته فى البيت الى الوان من الاحجـــام الذهنى والنفسى : « يجب الا تنظـــرى ويجب الاتقرئى ويجب الاتعرفى» الخ ·

ولعلى اكون قد بالغت فى وصف المساوىء التى تعود من الانفصال بين الجنسين لأن الحدود والسدود قد تحطمت الى حد ما · ولكن يجب أن نسلم انها مع الاسف لا تزال قائمة فى كثير من اوساطنا · وهى احيانا ، مع تحطمها فى الواقع المادى ، لا تزال قائمة فى بعض الاذهان والنفوس ·

يجب أن نعد الاختلاط جزءا من تربيتنا العامة وأن ندعو الى التعليم المختلط فى المـــدارس الابتدائية والى تشجيع الضـــيافة انراقيـــة بل أيضا الى غشـــيان المطاعم والمقاهى العامة مختلطين ·

وعندما ينتقل مجتمعنا من حال الانفصال الى حال الاختلاط سوف تحس اننا أمة متمدنة · وسوف يربينا الاختلاط ويحدث بيننـــا زمالة واحتراما ، ثم يؤدى الى الحب · اجل هذا الحب المكشـــوف الصريح الشريف الذى لا يحتاج الى اختلاس النظـــر من ثقـــوب الأبواب وخروم الأستار ·

الحياة الفنية للمرأة

كل ما قلنـــاه عن الرجل فى الفصول السابقة ينطبق أيضا على المرأة وقد نبهنا عن ذلك فى كلامنا عن العائلة والمجتمـع ٠ ولـكنا نحتاج مع ذلك أن نعالج الحيـاة الفنية للزوجة لأننا فى مصر قد ورثنا من التقـاليد أخطاء كثيرة ألغت المرأة من مجتمعنـا وكادت تغيبهـا عن احســاسنا ٠ وقد كوفحت هذه التقاليد بتعميم حرية المرأة ، وانتشار المدارس الى حد بعيد ٠ ولكن لا يزال لهذه التقاليد رواسب اذا لم ترتفع الى احساسنا الذهنى فانهـــا لا تزال تصبـغ عواطفنا وتؤثر فى حياة المرأة ٠

والحياة الفنية للمرأة تقتضى أن تعمل كالرجل ٠ فتحتـرف حرفة ما ترفعهـا من الانثوية الى الانسانية وتربيها طوال العمـر وتحملها على النمو والايناع النفسى، كما تقتضيها الاتصال بالرجال ٠ ونحن الرجال لا نستطيع أن نتخيل أنفسنا منفصلين عن المجتمـع قد حرمنا الحرفة لأننا نعرف أننا فى هذه الحال نسقط سقوط اليأس الذى لا ننهض منه ٠ ذلك لأن الحرفة والمجتمع يربياننا وهما من أكبر الدوافع لارتقائنـــا الذهنى والنفسى بل والجسمى ٠

وقليل من المقارنة بين امرأة لزمت البيت وحرمت المجتمـع ، وأخرى عملت فى حرفة واختلطت بالمجتمع ، مدة عشر سنوات مثلا، يوضح لنا مقدار الفرق العظيـم بينهما ٠ فان قيم الحياة الى حد عظيم قد ألغيت عند الاولى بينمـا هى قد روعيت عند الثـــانية ٠ ولذلك بينما تركد الاولى وتسمن وتترهل لقلة حركتها ، ولضيق آفاقها الذهنية والنفسية، تنشط الثـــانية فى عملهـــا وتستبقى نحافتها وعضليتها وتتسع آفاقها الذهنية والنفسية

وليس لأحد منا أن يؤمل فى القريب أن تستوى المرأة بالرجل فانها لم تصل الى هذه الحال فى أوربا وأمريـكا الى الآن ٠ ومع

ان قوانين الدول هناك تنص على المساواة فان قواعد المجتمع تأبى هذه المساواة . وفي مصر لا تزال الحرفة مكروهة عند المرأة وكثيرا ما تخرج منها عندما تلوح لها الفرصة للزواج كما نرى في بعض المعلمات مثلا . ولذلك فاننا عندما نعالج مركز المرأة في مصر نتجه الى البيت كأنه كل شيء . وهو ،في وضعها الاجتماعي القائم عندنا، يكاد يكون كذلك . وانما الذي ننساه هو أن البيت للمرأة وليست المرأة للبيت ، أي يجب أن يعد البيت لراحتها ورقيها وسلامتها ولا يضحى بها من أجل الطبخ والكنس والغسل فيه .

والبيت في مصر كثير الاعباء مرهق التكاليف كثيرا ما يشبه الورشة في ارهاقه وتعدد واجباته الصغيرة . كما لا يزال المطبخ والمغسل ورشتين صغيرتين لا ينقطع العمل منهما طوال النهار وبعضا من الليل . وربة البيت مضطرة الى الاشراف عليهما اذا لم تباشر بنفسها العمل فيهما . وهي في كلتا الحالتين تقتطع من وقتها وفراغها ما كان احرى ان تنفقه في ترقية شخصيتها بالدراسة والاختلاط والانتفاع المثمر بالفراغ

وتستطيع المرأة المصرية أن تنتفع باختبارات المرأة الاوربية هنا فان هذه تخص يوما أو يومين للخروج مع زوجها وأولادها والغداء أو العشاء في المطاعم . كما أنها تخص يوما أو يومين في الاسبوع لتناول الاطعمة المعلبة التي تستغنى بها عن الطبخ . والخروج الى المطاعم يتيح الاختلاط كما أن اقتناء العلب العديدة الوفيرة للأطعمة يتيح الفراغ الذي تستخدمه ربة البيت في تثقيف ذهنها أو في أي استمتاع آخر

ولذلك ارتقت بعض المطاعم في اوربا حتى ليصح ان يقال أنها ليست لتزويد زائريها بالطعام فقط . اذ لا يخلو مطعم منها من جوقة موسيقية ، كما أنها في ترتيب موائدها واختيار آنيتها

وتزيين جدرانها والتأنق فى الطبخ تبلغ القمة • وتداول الطعام فيها ليس لتوخى الشبع ولكنه قبل ذلك متعة فنية أنيقة • وكثيرا ما تعود الزوجة من المطعم وقد درست درسا نافعا فى طبخ احد الالوان أو ترتيب المائدة ، وهذا الى فوائد أخرى فى الاختلاط بالاصدقاء أو الاستماع للموسيقا

كما أن الاطعمة المعلبة تتنوع وتتعدد الى حد لا نتخيله فى مصر حيث نكاد نقتصر من هذه الاطعمة على السردين • فانهم فى أوربا وامريكا يعلبون جميع اللحوم والخضراوات والاسماك فتستطيع ربة البيت أن تحضر طعام اليوم كله دون أن تحتاج الى طبخ • بل أن كيزان الذرة الخضراء نفسها توضع فى علب • وزيادة على هذا تباع الفراخ منظفة فلا تحتاج الى عناء الذبح والتنظيف فى البيوت كما هى الحال عندنا حيث نشترى الفراخ حية ونذبحها ونحيل المطبخ بريشها وأحشائها الى مزبلة تجذب الذباب الذى يتفشى بعد ذلك فى الغرف الاخرى من البيت

واذا شئنا الترفيه عن المرأة المصرية فى البيت ، حتى تجد الفراغ الذى تحتاج اليه كى ترقى شخصيتها وتنير ذهنها وتوسع آفاقها ، فاننا يجب أن نعاونها على ذلك بغشيان المطاعم والاعتماد على الاطعمة المعلبة واحالة الغسل الى المغاسل كما تحيل الكى الى المكاوى • وبهذا تخف أعباء البيت التى ترهق فى الوقت الحاضر آلافا من نساء الطبقة المتوسطة •

وبالطبع لا ننسى هنا كثرة الاولاد أى الاسراف فى التناسل الذى يرهق الامهات ويستنفد كل مجهودهن بحيث لا يبقى لهن من القوة ما يتوفرن به على عمل آخر • وقد توافرت وسائل الضبط للتناسل كما أصبحت مأمونة • ولا عذر للزوجين فى اهمالها لأن هذا الاهمال سينعكس أثره فى الزوجين اللذين سوف تصدمهما حقائق الحاجات الاقتصادية فيعجزان عن توفير

الصحة والتربية للأولادبل أيضالهما. لأنهما هما أيضا فى حاجة الى صحة وتربية

وعلى ذلك نقول أن الحياةالفنيةللمرأة، اذا لم تكن تعمل مستقلة، أى طبيبة او معلمة أو ممرضة أوتاجرة ، تحتاج الى الاقتصاد فى عمل البيت من ناحية ، وفى عددالأولاد ، من ناحية أخرى .

العادات

نحن نعيش بالعادات ۰ عادات العمل وعادات الفكر ۰ ولكل منا عاداته الخاصة ، الحسنة أم السيئة ، في المشى والحديث والأكل والتفكير أى أنه يتخذ اسلوبا أو اساليب في كل ما يعمل ۰ وهذه الأساليب تلصق به طوال عمره ۰

وقد كان ولنجتون يقول عن العادة أنها ليست طبيعة ثانية كما هو المثل الجارى اذ هى تزيد على الطبيعة عشر مرات ۰

وعادات التفكير لا تقل خطورة عن عادات العمل ۰ فان الناس يختلفون تفاؤلا أو تشاؤما بالدنيا وصروفها لعادات فكرية تعودوها لا يطيقون التخلص منها ۰ وكلنا يعرف ذلك الشاب الذى يتسم بالتهكم أو المزاح فيثقل علينا باستصغاره لكل ما نفعل أو يملأنا طربا بنكاته ونوادره ۰ وهناك بالطبع ذلك الآخر الذى تعود الوقار فيكاد يجهل الضحك ۰ ثم هناك آخرون قد تعودوا الانتقاد أو حتى المناقرة فهم على الدوام في موقف المعارضة والمناقضة ۰ ثم هناك ذلك الذى تعود المخاصمة فلا نعرف كيف نحادثه لأننا نتوقع منه كل وقت لوما لنا في غير ما نستحق أن نلام عليه ۰

وجمع هذه الأخلاق عادات ذهنية يتعودها أحدنا، في الغالب، أيام طفولته فتثبت ولا تتركه طوال حياته ۰

ولكن كما تثبت العادة السيئة كذلك تثبت العادة الحسنة ۰ ولذلك يحتاج كل منا ، كى يعيش في اقتصاد ذهنى وجسمى ، وفي ملاءمة بينه وبين الوسط الاجتماعى أو المادى ، أن يتعود العادات الحسنة أى عادات الاكل الصحى والدراسة الدائمة والعمل المجدى والتسلية المرقية والمعاملة أو المعاشرة الاجتماعية التى تنأى عن الشر والعبث ۰

وميزة العادات ، زيادة على أنها تثبت وتلصق بنا ، أنها تجعل

العسير من الأعمال سهلا محببا الى النفس . وصحيح أن عاداتنا العامة التى تحرك غرائزنا وتنشط عقولنا تأتينا عفوا بعضها أيام الطفولة وبعضها بعد ذلك . ولكن ليس معنى هذا أننا نعجز عن تكوين العادات الحسنة أى تكونها بارادتنا وعلى معرفة تامة بمنفعتها وضرورتها لنا .

والهدف الذى نقصد اليه من تكوين العادة ، أن نقتصد فى مجهودنا حتى نستطيع أن نؤدى مقدارا من العمل أكبر مما كنا نؤديه قبل أن تتكون العادة وتستهلك من قوتنا اقل مما كانت تستهلك .

والرجل الحكيم لا يترك نفسه يعيش عفوا كأنه مسوق بالظروف والصروف . اذ يجب أن يعيش قصدا بأهدافه وعلى تقدير لمواهبه وكفاءته واستغلال لهما بما يجعل حياته مجدية ان لم تكن سعيدة . وهو محتاج ، لهذا السبب ، الى أن يتعود العادات الحسنة التى تعاون على رقيه وتطوره .

وأول ما نحتاج اليه فى تكوين عادة ما أن نقتنع بفائدتها وضرورتها لنا . وهذا الاقتناع ليس محض الميل والاتجاه . اذ يجب أن نعين الفوائد التى تعود علينا كتابة مع التفصيل الذى ربما يحتاج الى مراجعة وتفكير وتنقيح . أى أننا يجب أن نحس أننا لم نأخذ بهذه العادة الا بعد حكم قد وصلنا اليه عن دراية ويقظة . واننا بنينا هذا الحكم على أسباب قوية وتحقيقات دقيقة قد اقتضاها « تصميم » حياتنا .

فاذا اقتنعنا بفائدة العادة شرعنا فيها . وحسبنا من هذا الشروع أن نعمد الى يومنا ، أى هذا اليوم ، الى ممارسة العادة . ثم نجدد العزم كل يوم على هذه الممارسة الى أن يؤدى التكرار الى ثباتها . ولا بد من المثابرة بحيث لا يفوتنا يوم الا ونحن فى ممارسة لها .

وواضح اننا عندما نختار عادة يجب أن تكون في مستطاعنا حتى لا تتجاوز طاقتنا. ثم يؤدى عجزنا الى تركها .

مثال ذلك : نفرض أن أحدنا قد بلغ الثلاثين وهو يجد انه مقصر في الدراسة وان زملاءه قد سبقوه فصار لهم مقام وحققوا كسبا ونالوا أماني لم يحصل هو عليها لتقصيره في الدراسة . وانه ينوى ان يتعود عادة الدراسة

فاول ما يعمد اليه أن يعين هذه الدراسة ويوضح الاسباب التى تدعوه اليها . ويوضحها كتابة مع التفصيل والمراجعة حتى يقتنع بضرورتها .

ثم يبدأ اليوم ، هذا اليوم ، في هذه الدراسة .

ثم يثابر . والمثابرة هنا تعني أنه لا ينقطع .

وهو محتاج الى تشجيع . وقدلا يجد هذا التشجيع من اخوانه. وعليه عندئذ أن يسجل نجاحه يوما بعد يوم لان هذا التسجيل يوضح له الخطوات التى خطاها نحو تحقيق أهدافه . فهو يزيده حماسة ونشاطا واقبالا .

وقد ذكرنا الدراسة باعتبارها احدى العادات التى يجب على الشاب أن يتعودها. ولكن العادات الحسنة كثيرة . لأننا محتاجون الى عادات الرياضة البدنية ، والمحادثة بكلمات كريمة ، والاعتدال في الطعام مع التانق الذى يقتضيه التمدن ، وأمثال ذلك مما قد تصغر قيمته عند ماتتأمله عملا منفردا ولكن تكبر قيمته عندما نتأمله عادة متكررة، اذ قد يسهل علينا ان نتحدث الى أحد الناس في لغة كريمة وكلمات أنيقة اذا قصدنا الى ذلك وتكلفنا. ولكن لا يسهل أن نفعل ذلك مع جميع الناس على سبيل العادة عفوا وسماحة . وكثير من النجاح يعزى أحيانا الى مثل هذه العادات .

لقد عرفت رجلا نال منصبا عاليا كان يحتاج الى دراسة

مستفيضة ومعارف عميقة لم تكن في طاقته . ولكن هذا النقص قد داراه سلوكه الشخصي : أدب في الكلمة والايماءة، وكراهة بل نفور من العيب في أحد ، ومواظبة على العمل ، ومعونة عاجلة لجميع أصدقائه . وجميع هذه العادات اصبحت جزءا من جهازه النفسي والذهني فلم يكن يحس اية مشقة في القيام بها . وكانت هي السبب الاول في نجاحه وبلوغه منصبا من أكبر مناصب الدولة .

التخلص من العادات السيئة

العادة كالنار اما خادمة حسنة واما سيدة مؤذية ، وكثيرا ما تتسلط علينا عادات تتملكنا وتستبد بنا فنؤديها خاضعين ونحن على مضض من الحاحها وعلى معرفة بما تبدده من قوانا وحيويتنا

وكثير من عاداتنا السيئة يعود الى اهمال أبوينا فى تربيتنا حين عودونا التدلل وكراهة الاستقلال أو الخوف والاحجام أو حتى كراهة بعض الاطعمة ، فانى أعرف رجلا بلغ الستين ولم يذق الجبن فى حياته . وكراهته لهذا البروتين الثمين ترجع الى أيام طفولته حين أهمل أبواه تعويده تناول هذا الغذاء . وقد خسر كثيرا فى صحته وماله بهذا الحرمان . كما أن هناك ناسا قد بلغوا الاربعين أو الخمسين اذا رأيناهم يأكلون اشمأززنا من الاسلوب الذى يتبعونه بالعادة فى تناول الطعام ومضغه

واتجاهاتنا وميولنا هى عادات كامنة توجهنا نحو الجد أو المزاح . ونحو التشاؤم أو التفاؤل . ونحو الاقدام أو الاحجام وهى عادات نفسية لا تختلف عن عاداتنا الجسمية ، فى غسل الوجه أو السير فى الشارع أو التحية لصديق . وهى ، أى هذه العادات النفسية ، تعين سلوكنا وتصرفنا

وبالطبع هناك عادات خطرة كالتدخين أو الشراب أو اسوأ من هذا ، كالمخدرات والشهوات الشاذة ، ونحن لا نعالج هنا هذه العادات اذ هى تحتاج الى تحليل نفسى كى نصل الى الازمات والتوترات التى أحدثت الالتجاء الى هذه العادات فرارا من الواقع المؤلم

وقد يكون التدخين أخفها فلا يحتاج الى تحليل . لان الاغلب أن الشاب يقع فى هذه العادة رغبة ساذجة فى تكوين شخصيته وتأكيد رجولته . ولكن ادمان التدخين يدل على توتر نفسى يحتاج الى التحليل

وفى ابطال العـادة ، كما فى تكوينها ، نحتاج ، قبل كل شىء، الى الاقتنــاع • وهذا الاقتنــاع يحتاج الى توضيح العناصر كما لو كنـا ندافع عن متهم ونوضح عناصر البراءة . وذلك كى نبنى الاقتناع على أسباب وجيهة • فاذا تم لنا ذلك فلنشرع فى التنفيذ ونقنع منه بيوم واحد. يوم واحد

فالمدخن الذى ينـوى ابطـال التدخين يحتاج الى ايضاح الاسباب كتابة ، لهذا الابطال ، ثم عليه أن يقرر العزم على الامتناع يوما واحدا لا أكثر • فاذا تم له هذا اليوم فعليه أن يقرر هـذا اليوم وعليه أن يسجل هذا الانتصار، كتابة أيضا ، ثم يجدد العزم على يوم آخر ، وكلما مضى يوم ضعفت العادة وتراخت قبضتها على خناقه

ويجب على المدخن أيضـا أن يسـتعين بالوسط • أى يغـير الشـارع الذى تعود أن يشترى منه • أو لا يأخذ مؤونته اذا كان على قصد الابتعـاد عنه أو نحو ذلك • ثم يجب المثابرة فلا يخرم يوما يعود فيه الى عادته لان هذا اليوم وحده قد يفسد جميع أيام الحرمان السابقة أو يلغيها

واذا وجد الشاب أنه مع ذلك عاجز عن ابطال العـادة السيئة فعليه بالتحليل النفسى حتى يصل الى الاصول الثـابتة فى كامنته «عقله الكامن» فيكشفها وينفضها فى الهـواء • وعندئذ يسـهل الابطال •

ولكن العادة تحدث فى النفس شهوة . وابطالها كظم لا يطاق . وكثيرا ما رأينا آثار هذا الكظم فى مدمن الخمـر حين يتأخر عن ميعـاد شرابه • فانه يقلق فى مكانه . وقد يرتعش أو يعرق أو يغضب وهذا لانه كظم الشهوة للشراب سـاعة أو أقل أو أكثر فقط ، فكيف بالابطال التام ؟

يجب على المدمن أن يأخذ بعادة أخرى قريبة أو مناسبة للعادة السـابقة التى ابطلها حتى تجد شهوته المكظومة المنفس والمخرج

كالقهوة بدل التدخين او الالعاب الرياضية بدلا من القمار أو الطعام قبل ميعاد الشراب بربع ساعة مثلا حتى تمتلىء المعدة فلا يساغ الشراب كثيرا . واذا لم تنجح هذه الوسائل للاقلاع عن عادة سيئة فيجب ، كما قلنا ، الالتجاء الى التحليل النفسى . واذا لم يكن هذا متيسرا فلا باس من الاعتماد على ما يسمى «الانعكاس المعدول» اى ايجاد مركب نفسى سيىء كأن نحقن شريب الخمر بحقنة مقيئة قبل الشراب ثم ناذن له بكل ما يهوى من شراب كما وكيفا حتى اذا جرع كاسين او ثلاثا الفى نفسه فى غثيان وقىء . فاذا صحا صار لا يشتهى الخمر الا وفى نفسه هذا الجزع من الغثيان فيكره الخمر . وهذا هو ماتفعله الأم مع طفلها الرضيع حين تحتاج الى فطامه فانها تطلى الحلمة بسائل مر فيكره الطفل الرضاع لانه يقرن المرارة الى الحلمة .

ولكن المرارة للحلمة ، والغثيان وقت الشراب ، كلاهما عمل سلبى اى أنه يكف ويزجر . والحاجة تدعو هنا الى عمل ايجابى يغرى ويجذب . وهو عند الأم تقديم طعام سائغ للطفل . وكذلك يجب ان نقدم شيئا للسكير له قيمة نفسية ترفيهية تقوم مقام الخمر . ولكل انسان ظروفه التى تعين العلاج . فقد يعالج احدهم بالرفقة المنعشة مع احد الاصدقاء وقد يعالج آخر باهتمامات لذيذة تملك نشاطه وتوجهه

وحياتنا كلها سلسلة من العادات الجسمية والذهنية والنفسية فاذا قصدنا الى ان نجعل حياتنا فنا جميلا فاننا نحتاج الى تعود العادات التى تؤدى الى الاقتصاد فى مجهوداتنا كما نحتاج الى عادات التانق ، نتأنق فى لباسنا وطعامنا وتصرفنا ، حتى نجعل الكيف يأخذ مكان الكم فنطلب الكمال فوق الضرورة ونقصد الى الجمال فى كل ما نتوخى من وسائل أو غايات .

ويجب أن نذكر أن العــادة الحسنة تقينا من العاذة السيئة لانها تستغرق الوقت والجهد اللذين تحتاج اليهما العادة السيئة . فانى مثلا لم أعرف التدخين أولعب الورق لانى شغفت بالقراءة منذ كانت سنى ستعشرة سنة فالوقت الذى استغرقته القراءة حال دون توفير الوقت الذى كان يحتاج اليه التدخين أو اللعب

عـادة القـراءة

تحدثنا فى بعض الفصول السابقة عن القيمة العظمى لعادة القراءة . ولكننا مع ذلك نحتاج الى التوسع فى ايضاح هذه القيمة وهذا الكتاب الذى نتوخى فيه جعل الحياة فنية يجب أن يحوى فصلا عن القراءة • لان القراءة وحدها تجعل الحياة فنية فى الكثير من معانيها اذ هى ترفع القارىء من الاعتبارات المحلية ومن الضرورات المعيشية الى قيم بشرية سامية والى كمالبات و تأنقات ذهنية لا يحصل عليها الأمى أو ذلك القارىء الذى يحيل نفسه الى أمى لانه يكره القراءة

وفى أيامنا يعد توافر الكتب والمجلات والجرائد من أعظم انتصارات الحضارة العصرية • لانه قد جعلنا ، بالقراءة المثابرة ، على دراية دائمة بعصرنا ودنيانا فاتسعت آفاقنا الفكرية والعاطفية وحفلت حياة القارئين باهتمامات جديدة ومتجددة لم يكن آباؤنا يعرفون شيئا منها • فاذا لم تكن حياتنا اطول من حياتهم فانها ، على الاقل بالقراءة ، أعرض وأعمق منها •

وواضح أننا نقصد هنا القراءة المنيرة المنبهة لا القراءة المظلمة المخدرة • فان هناك قراء وقارئات يشترون المجلة كما يشترون اللب أو اللبان للتسلية وقتل الوقت كما أن هناك مؤلفين قد زودوا السوق «الادبية» بهذه المخدرات التى تبنج العقل وتلغى الضمير واليقظة

ولكن القارىء الذى يعنى بحياته يأبى التخدير لانه لا يحب أن ينسى أنه حى ، وهو يقرأ كى يزيد حياته حيوية وليس كى ينام ويتخدر • وهو يزداد بالقراءة سرورا واحساسا بالنمو • وقراءته دراسة مقصودة مرتبة على مراحل حياته كأنها البرنامج للنمو والتطور • والقارىء الذى يحس بعد سنوات من دراسته أنه لم يتطور يحتاج الى المراجعة والتساؤل • لان أغلب الظن أنه

أساء فى اختيار الكتب وانغمس فى دراسات جامدة لا تبعثه على الرقى أو النمو أو التطور

والقراءة الجزافية سيئة وهى كالأكل الجزافى ٠ لاننا نحتاج فى الحياة الفنية الى التنظيم والترتيب ووضع البرامج كى تتفتح الميادين الجديدة ٠ فالرجل المستنير لا يرضى لنفسه هذه الايام ان يعيش على هذا الكوكب دون أن يحاول الوقوف على ماهية الطاقة الذرية كما لا يرضى لنفسه أن يجهل نظرية التطور ، التطور الطبيعى والتطور الاجتماعى

وهناك عشرات من الموضوعات الحيوية التى لا يجوز لمستنير أن يهملها ٠ وهى تستغرق الحياة كلها ٠ بل أن المتعودين للدراسة يجدون أنهم فى شكوى دائمة من قلة الوقت ٠ ولذلك لا يعرفون السأم واهتماماتهم متعددة متجددة

والحياة الفنية تتجه نحو العناية بالفنون الجميلة قبل كل شىء أى بالادب والشعر والموسيقى والرسم وما الى ذلك ٠ لان هذه الفنون تزيدنا تأنقا فنتوخى الجمال فى تصرفنا كما نتوخاه فى بيئتنا . ولكن التعمق يقتضى الا يقف أحدنا من الدراسة موقف القارىء المطالع القانع بزيادة معارفه ٠ اذ يجب أيضا أن يشترك ايجابيا فى ثقافة معينة تكون عنده كالبؤرة الاصلية التى تتشعع الى ثقافات فرعية عديدة ٠ وهو يحسن اذا مارس الكتابة عما يقرأ ٠ يشرع أولا فى مراسلة بعض المجلات ثم يرتقى الى كتابة المقالات أو القصص القصيرة ثم الى التأليف اذا استطاع ذلك ٠ ولكن يجب على كل حال أن يحاول الكتابة التى تزيده ارتباطا بالثقافة وتحمله على زيادة البحث والاستقصاء لما يدرس

وثم اعتبار آخر فى قيمة القراءة أو الدراسة للحياة الفنية هى أنها أعظم الوسائل للاحتفاظ بشباب الذهن فى الشيخوخة . فالشاب الذى تعود قراءة الجريدة والكتاب أيام شبابه ثم واصل

هذه العادة فى كهولته وشيخوخته يحتفظ بالكلمات ماثلة حية فى ذهنه حين تتبلد العواطف فلا تحرك الذهن الى التفكير والاهتمام بل حين تأخذ خلايا المخ فى التدهور وتعجز الشرايين الدقيقة المتصلة عن تغذيتها وتنظيفها . ففى هذه الحال يرافق الشيخوخة نسيان للكلمات يؤدى الى تعطيل للتفكير . ولكن عادة القراءة كل يوم تجعل الكلمات ، كما قلنا ، ماثلة. ومتى مثلت الكلمات مثلت الافكار . فيبقى الذهن شابا حيا وتعود الشيخوخة حافلة بالاهتمامات حتى ولو بلغنا التسعين أو المائة . وترى هذا واضحا فى جميع الادباء أو العلماء الذين لم ينقطعوا عن الدراسة فى شيخوختهم اذ فى الوقت الذى يجد فيه غيرهم أن ذهنه قد تبلد وجمد ، أو حتى خرف ، يجدون هم انهم لا يزالون يقرأون ويكتبون كما لو كانوا فى الشباب . وقليل منهم من يمتاز بشرايين طرية أو صحة عامة تختلف عن سائر الناس . ولكن ميزتهم الوحيدة هى الميزة اللغوية اذ قد احتفظوا بالكلمات فاحتفظوا بالمعانى أيضا وبقيت الافكار حية عندهم تحركهم الى النشاط والاهتمام

ولذلك تعد القراءة خير مانهيىء للشيخوخة . ويجب الا يقل الاهتمام بها عن الاهتمام بالصحة الجسمية . بل ربما كانت هى أهم وأنجع لاستبقاء الحيوية عند المسنين . وعندنا من الامثلة فى مصر ما يبرهن على صحة قولنا . ففى هذا الوقت الذى أكتب فيه هذه الكلمات (١٩٥٣) يعيش الاستاذ احمد لطفى السيد فى الثمانين وهو يستمتع بذهن يقظ وشباب عجيب لانه لم ينقطع يوما عن القراءة الجدية . فالكلمات (أى الافكار) ماثلة فى ذهنه تبعثه على اهتمامات ثقافية مختلفة وهو دائب البحث فى اللغة والادب والفلسفة والسياسة

ولذلك نحن على حق حين نقول أن صحة الذهن للمسنين أهم من صحة الجسم . ومداومة القراءة اليومية هى خير مايؤدى الى صحة

الذهن . ونستطيع ان نذكر عشرات من المسنين استقوا بالقراءة شباب أذهانهم . ولكنا نحب ان نغير كلمة القراءة ، فنقول: الدراسة . لاننا نقصد الى الجد والترتيب ووضع البرامج للتوسع الذهني ، ولا نقصد الى القراءة التي تقوم مقام اكل اللب أومضغ اللبان .

والبيت المتمدن في عصرنا هو البيت الذي يعرف أن أفخر ما فيه من أثاث انما هو الكتب ، لانها غذاء نفوسنا وعقولنا التي هي احق بالعناية من بطوننا . ومن عجب أن هناك من يعد نفسه متمتعا بحياته لانه يأكل افخر الاطعمة ويلبس اجود الملابس ولا يدري أن المتع البشرية السامية تتجاوز هذه الحاجات المادية الى الوقوف على ذلك التراث البشري العظيم من مؤلفات أفلاطون الى صلوات اخناتون الى فلسفة بوذا الى دراسة الكتب المقدسة الى تواريخ الاديان وحياة القديسين الى حقائق العلوم وتطورات الامم وغير ذلك . واى شيء من أثاث المنازل عند المليونيين في المال ، يعادل الذهن المؤثث بالاختبارات والنظريات والافكار التي تبسط تاريخ المستقبل فضلا عن تاريخ الماضي ؟ واى شيء أثمن من تراث الفنون والآداب وبلاغة النثر والشعر مما خلف الادباء والشعراء

والقيم البشرية تعد على الدوام في المرتبة العليا بالمقارنة الى القيم الاجتماعية . ولذلك لايمكن ان يقارن الثراء والوجاهة والمال وترف المنزل والمعيشة بالذهن الثري بالثقافة المتمرن على التفكير اليقظ بالضمير العالمي . وذلك الشاب الذي يهمل تعود الدراسة ويبخل في شراء الكتب والمجلات ويؤثر عليها الرياش النفيسة أو اكتناز المال . انما يبخس نفسه التي هي أولى من اى شيء آخر بالانفاق بل بالاسراف في الانفاق .

البيت متحف

البيت من اخص الاشياء التي نملكها . فقد نقتنى اسهم الشركات او مئـات او آلاف الجنيهات، أو قد نشترى ضيعة نستغلها ونعيش في احدى المدن من غلتها ولكن ليس لواحد من هذه المقتنيات تلك العلاقة الحميمة التى تربطنا بالبيت . لان له خصوصية بنا ليست لغيره . ونحن نقضي فيه معظم نهارنا وجميع ليلنا ونعاشر فيه أولادنا وزوجتنا ونجد فيه الراحة والاستجمام بعد كد النهار . كما اننا نطبع عليه شخصيتنا لاننا نتخير له الاثاث ونتأنق فى ترتيبه. ومن هنا هذا الحنين الذى نحس به عقب اغتراب عنه بضعة أسابيع او اشهر ولو كان هذا الاغتراب فى مصيف او مشتى للراحة والاستجمام .

وعند بعض الناس يعد البيت مأوى او مطعما . ولذلك سرعان ما يتركونه الى المقهى أو النادى او الحانة حيث يجدون رفاهيتهم مع الاصدقاء او فى لذة الشراب . ولكن هؤلاء البعض ليسوا فى الغالب على حال سوية نفسية اذ هم يكظمون اشياء من علاقة زوجية سيئة الى قلق اقتصادى او حرفى أو نحو ذلك . ولفرارهم من البيت معنى رمزى يسهل تفسيره بالتحليل النفسى .

والبيت مشتق لغة من فعل « بات » اى أمضى الليل . وهو بهذا الاشتقاق يدلنا على الضرورة الاولى التى اقتضته . ولكن الانسان فى طورنا الحضارى لايقنع بالضرورات اذ هو قد سما الى كثير من الكماليات . وهو يطلب من البيت اكثر من المأوى والمطعم . وقد نصحنا فى فصل سابق بأن يجنح الزوجان من وقت لآخر الى المطاعم العامة وبأن يحال غسل الملابس الى حيث تغسل بالاجر بدلا من احالة البيت الى ورشة للغسل والطبخ طوال اليوم .

والوضع الاجتماعى القائم يجعل البيت المكان الطبيعى

للمرأة . وليست الحال كذلك للرجل . ولكنا نبالغ فى تاكيد هذا الوضع حتى لكأن المرأة قدخلقت للبيت . وليس العكس. وهذه المبالغة تنتهى بأن نجعل من البيت محبسا لها يفصل بينها وبين النشاط الاجتماعى الذى يجب ان تدخل فى غماره وتتاثر به وتؤثر فيه . اذ هى قبل ان تكون « ربة بيت » ، انسان ، له مركزه الاكبر فى هذه الدنيا قبل مركزه الاصغر فى البيت .

وهناك فرق بين السرور والسعادة . الاول مادى بشأن المواد التى نقتنيها ونستمتع بها . والثانية فكرية بشأن الغايات والمثليات . ولكن ليس شك فى أنّ أقرب المسرات الى السعادة هو الحياة العائلية السامية . لان البيت مادة وفكرة اى انه ماوى ومطعم ومتحف كما هو عائلة تقوم على علاقات روحية وتهدف الى مثليات وتحقق أمانى كثيرا ما تحملنا على أسمى المجهودات . والبيت ايضا يمتد بنا الى المستقبل عن طريق الابناء

والبيت السامى العصرى هو معهد حر يجد فيه اعضاؤه حرية الفكر تسود جميع المناقشات النيرة فى ديمقراطية اجتماعية وتربية ذهنية وأخلاقية . وهو وحدة المجتمع الذى تتالف منه الأمة . وكل عناية بالبيت انما هى فى النهاية عناية بالاخلاق الحسنة والسلوك البار لان الاطفال عندما يشبون يعاملون أفراد المجتمع بالقيم والاوزان التى تلقوها فى البيت ايام طفولتهم .

ثم نحن نعيش فى البيت نحو سبعين سنة اى نعيش هذا القدر بأجسامنا ولكنا نعيش بنفوسنا أكثر من هذه السنين لاننا نحس نفسيا ان عائلتنا امنا وان حياتنا مندغمة فى حياة افرادها ، سلفا وخلفا ، ولذلك يمتد احساسنا للبيت الى مقدار من السنين يتجاوز حياتنا ، وهذا الاحساس يجعلنا نستهين بأى

مجهود لترقية البيت .

ثم للبيت خصوصية بنا كأنه البذلة التى نلبسها على قد قامتنا نعنى بتفصيلها حتى تتخذ قسمات اعضائنا مع ماقد يكون بها من نقص . ولذلك نحن نؤثر البذلة التى فصلها الخياط على بذلة جاهزة قد اخذ القياس فيها بالتعميم وطراز السن وليس بالتخصيص والعناية الخاصة بكل فرد .

ويعد البيت لهذا السبب، مركبا ، نفسيا والحنين اليه احد مظاهره . وقد وجد البيت لذلك حرمة فى كثير من الامم المتمدنة . فلا يجوز للدائن بيعه او بيع أثاثه مهما بلغ الدين الذى يحمله صاحبه . كما قد اجازت الامم امتلاك المسكن الخاص فى المبنى العظيم الذى قد يحوى عشرين أو ثلاثين شقة . وذلك تشجيعا لهذه الخصوصية التى تحمل صاحب البيت على الارتباط والعناية به . لانها لحظت ان للبيت اثرا تقويميا للاخلاق . فكما ان المتزوج أقل جرائم واستهتارا من العزب لارتباط الاول بزوجته ، كذلك صاحب البيت اقوم اخلاقا ممن لايملك بيتا لمثل هذا الارتباط .

وفن الحياة يقتضينا ان ننظر الى الحياة نظرة فنية فنختار الاثاث فى دراية وعناية مع الاستقلال حتى ولو خالفنا العرف فى هذا الاختيار . لان العرف بطبيعته طراز تعميمى . ولكن الشخصية المستقلة تطلب التخصيص والانفراد . والبيت يتسع للاتجاه الفنى حتى يعود بالتأنق متحفا . وكثير من البيوت التى امتاز أصحابها بالثراء قد صارت متاحف . ولكنها مع الاسف متاحف قد أسيء فيها الاختيار . حيث اخذت الابهة المطهمة مكان الفن الانيق

ولكن مع ذلك يجب ان نعترف ان الثراء فى ايامنا يستطيع ان

يجذب الى البيت أفخر الاثاث الذى يضع تصميمه ويرسم مواصفاته فنانون فقراء . ولذلك يشق على غير المتيسرين أن يجعلوا الفن سائدا فى بيوتهم فضلا عن احالتها الى متاحف .

فهناك آنية فنية معجبة تزدان بها الموائد عند الاغنياء ولا يستطيع غيرهم شراءها . وقل مثل هذا فى سائر الاثاث او بالاحرى معظمه . ونقول فى معظمه ، لان كثيرا من الاثاث الغالى فى الثمن لانجد فيه غير الابهة السخيفة مع القبح العظيم لان الذين صنعوه قصدوا الى كثرة النفقات التى تبرز وفرة المال عند المقتنين لهذا الاثاث دون الالتفات الى التأنق الفنى

نذكر من هذا سريرا رأيناه من النيكل له قبة كأنه اريكة جنكيزخان او عرش تيمورلنك . وكل مافيه من ميزة انه يباع ببضع مئات من الجنيهات .

وكم قد رأينا من مقاعد مذهبة وكنبيهات منجدة ومناضد ومرايا متعددة حتى ليدخل احدنا منظرة الضيوف فيحس كأنه فى قاعة أثاث قد عرضت أشياؤها للمزاد ، لان الوفرة الثرية قد اخذت مكان الاقتصاد الفنى

والفن أيسر من هذا . ولكنه مع ذلك لايتوافر لغير المتوسطين المدبرين الذين يختارون عن دراية وفهم . وليس هذا شاقا اذا جعلنا همنا فى جمع الاثاث ممتدا على سنى العمر ، أى لانشترى اثاث البيت دفعة واحدة كما هو المألوف فى بلادنا بتجهيز العروس بأثاث بيتها . لاننا حين نفعل هذا نجمع الاثاث فى عجلة وفقا لطراز العصر اوالسنة . وقد يكون طرازا سيئا أملته نزوة وقتية زائلة . وانما يحسن ان نختار الاثاث قطعة بعد أخرى مع التغيير الذى يقتضيه ارتقاؤنا الفنى على مدى السنين . ويجب ان نقتنى اجود الاثاث فلا نتسامح فى الجودة والقيمة

الفنية . وهذا ميسور مادمنا لانزخم انفسنا ونرهق جيوبنا في شراء مجموعة كبيرة دفعة واحدة . وبذلك تجمع تحف الآنية والرسوم والكتب وسائر الاثاث . ويعود البيت متحفا جميلا يحوى افخر ما أخرجته حضارة فرنسا والصين والمانيا ومصر وغيرهن .

واذا كان رب البيت او ربته على شيء من ثقافة معينة استطاعت ان تجعل البيت متحفا لثقافتها . وكثيرا مايدخل احدنا بيتا لأحد المثقفين فيجد فيه الطرف العجيبة التى اكتشفها من أحجار أو محار أو معادن او احياء أو غير ذلك . وهذا بالطبع لايتفق لكل منا .

ولكن الشيء المهم الذى نقصد اليه ان يجد البيت منا عناية فنية فى تاثيثه . وان ننظر اليه كانه متحف عائلى يجمع طرف الجدود والاحفاد فيتخذ بذلك سمة من سمات الخلود فلا يكون مادة فقط بل فكرة ايضا

البيت للضيافة

للبيت خصوصية عائلية حميمة يحس بها اعضاؤه فيما يشبه المؤامرة . ذلك ان لهم أسرارا وأهدافا واساليب يتفقون عليها في مجتمعهم الصغير ولايفشونها لغيرهم . وهذه الخصوصية تربطهم وتزيد احساسهم العائلي .

ولكن البيت يجب ألا يستأثر بعلاقاتنا الاجتماعية . ومهما نمتدح ارتباط الابناء بالآباء والزوج بزوجته ، ومهما يكن الجو العائلي من حيث التعلق الحميم بين اعضاء البيت ، فان البيوت تحتاج الى تهوية اجتماعية بالضيافة والزيارة . والمبالغة في الارتباط العائلي هي شطط الفضيلة ، فضيلة التعلق العائلي التي تعود رذيلة

ولكل فرد منا حياة سرية اوكالسرية كانها العقل الكامن في النفس يوجهنا من حيث لا ندرى ، ولكل منا ايضا حياة اجتماعية علنية كانها الضمير الذى ينتقد ويحاسب ويراجع .

والحياة السوية هي تلك التي تصالح بين العقل والضمير وتوفق بينهما ، ففي البيت نحن نختمر ونتهيأ . وفي المجتمع نحن نتكشف ونباشر . ويجب لذلك أن نعنى بالضيافة والزيارة لانهما وسيلة الاتصال بين البيت والمجتمع

يجب ان نعنى بالبيت اجل العناية حتى نجعله متحفا يحوى تراث الجدود وطرف الحضارة والوان الرفاهية . ولكن يجب ان نتوقى جبسة الجدران لانها تحبس النفس عن التوسع والنمو والترقى .

ولذلك نصحنا بضرورة الخروج من وقت لآخر الى المطاعم العامة او المتنزهات الخلوية . ولذلك نصحنا ايضا بضرورة التخفيف من اعباء البيت حتى لايستحيل الى ورشة لا ينقطع العمل فيها للطبخ والغسل

والضيافة من الفنون الراقية التى يجب أن نفصلها من فضيلة الكرم . . ذلك لاننا نقرن الكرم الى الموائد المطهمة والوان الطعام السخية .

ولكن الضيافة العصرية بعيدة كل البعد عن هذا الشره المادى . لان هدفها ترقية العائلات بالتعارف والتنوير بالحديث والمناقشة .

وفى مدينة مثل القاهرة حيث تتعدد المطاعم وتختلف على موائدها الالوان لايكون من مفاخر ربة البيت ان تعد لضيوفها مائدة يتوسطها الدندى وتحتشد عليها اللحوم والحلويات . ويستطيع وجيه فى الريف ان يزودنا بهذه المائدة المادية ولكنه يعجز عن امتاعنا بالضيافة المهذبة المنيرة

وخير من العناية بالطعام ان نعنى بالاثاث فى ايجاد مقاعد مريحة للضيوف لا تكون للزينة ولكن للراحة . فاننا كثيرا ماندخل احد البيوت فلا نجد غير تلك الكراسى الواقفة التى تقعد عليها وكاننا وقوف . وكأن المقصود منها الا نطيل القعود .

ولذلك يجب أن نستبعد من أذهاننا فكرة الكرم الشرقى حين نفكر فى الضيافة الراقية ... وصحيح انه لابد للضيافة من شىء أو أشياء من الطعام والشراب . ولكن يجب أن يكون ذلك فى حدود التعقل والاعتدال . لاننا حين نستضيف او نستضاف نؤثر غذاء النفوس على غذاء البطون ونهوى الاستماع الى حديث يعلمنا وينيرنا كما نحب لقاء الشخصيات الفذة التى لايتيسر لنا لقاؤها الا فى مثل هذه الفرص

ولذلك يجب أن ندرس فن الضيافة باعتباره جزءا خاصا من الحياة العامة . فنعين للعائلة يوما كل أسبوع للضيافة ونجعل الشاى او المثلجات مع القليل من الاطعمة الخفيفة كالسندويتش

كل مانقدمه للضيوف . وتقديم الشاى خير من اعداد العشاء ، ذلك لانه يتيح سهرة طويلة تبدأ من الساعة الخامسة وقد تنتهى فى الساعة التاسعة او العاشرة ثم هو لايبهظنا بنفقاته فيثبطنا عن المواظبة .

ويجب ان يكون للضيافة الحسنة بؤرة تجمع الضيوف . وقد يكون رب البيت او ربته هذه البؤرة اذا كان احدهما ممتازا له مكانة اجتماعية او ادبية او اختبارات نشتاق الى الوقوف عليها . كأن يكون احدهما عضوا فى جمعية او مؤسسة لها نشاط معين . ولكن اذا لم يكن هذا متيسرا فان من الحسن ان ندعى شخصية ممتازة او ترتب محاضرة فى موضوع يهتم له الضيوف . ثم يتناقش الضيوف . ولسنا نقصد الى ان نقول انه يجب ايجاد محاضر فذ فى كل ضيافة . فان هذه الحال المثلى لاتتوافر على الدوام ولكن ربة البيت المستنيرة التى تتجه هذه الوجهة تستطيع فى غياب المحاضر ان تجعل الحديث يدور حول موضوع سياسى او اجتماعى يشغل الضيوف ويهمهم

والضيافة ، كما قلنا ، تهوية اجتماعية للبيت . وهى تحرك اعضاء العائلة والضيوف الى مايشبه المباراة الفنية فى الزى واللغة والشخصية . كما انها ، اى الضيافة ، تربى ابناء البيت الناشئين على المؤانسة الاجتماعية فلا ينمو الصبى ، ثم الشاب ، فى حياة انفرادية معزولة . وقد ينشأ لذلك فجا مربوك الحركة ثقيل اللسان لايعرف كيف يتحدث الى آنسة او كيف يشترك فى سمر مهذب منير

وهناك كتب كثيرة فى اللغات الاجنبية تصف فن الضيافة سواء من ناحيته المادية بتهيئة الطعام والشراب الخفيفين او ناحيته الاجتماعية بايجاد الوان من السمر المسلى .

وفن الضيافة يقتضى العناية باختيار الاصدقاء والمحافظة على صداقتهم . فأن الاهتداء الى صديق والاستمتاع بصداقته طوال العمر او معظمه هما حظ عظيم ومتعة سامية لمن يوفق اليهما . والصداقة لاتنهض ولاتحيا الا على اسس من العلاقات الروحية التى اثمرها اشتراك فى الثقافة او الاهداف والمثليات الاجتماعية .

وليست القرابة شيئا يقاس الى جانب الصداقة . لاو مصادفة الميلاد التى تجعل من هذا الشخص شقيقا او خالا او ابن عم لاتكفى وحدها لتعارف العمر . اذ كثيرا ماينتهى الاقرباء بالدم الى اغراب بالاتجاه الاجتماعى أو الثقافى . ولكننا حين نعرف صديقا نجد عنده نزاهة الضمير ونور العقل ، هذا الصديق هو جوهرة العمر التى يجب الا نفقدها . واذا كانت الضيافة تعثرنا على مثل هذا الصديق فأنها تكون عندئذ قد فتحت لنا بابا من ابواب السعادة الدنيوية .

البيت معهد حر

البيت فى الاقطار المتمدنة فى اوربا وامريكا معهد حر لاتسوده سلطة الاب الاتوقراطية . ينشأ فيه الاولاد فى مجتمع راق يختلطون بالضيوف ويجدون فى هذا الاختلاط تنويرا وتدريبا على المعاملة والايناس والحديث ، والكلمة العذبة ، والعبارة المهذبة ، كما تجد الزوجة فيه مجالا لترقية شخصيتها بما تتحمل من تبعات نحو زوجها واولادها وبما تجد فى ضيوفها من ميزات تنقلها عنهم .

وكلمتا البيت والعائلة تندمجان فى معناهما . والبيت الامثل هو الذى تسود المساواة فيه اعضاء العائلة ليس بين الزوج وزوجته فقط بل بينهما وبين الاولاد .

واذا كان هؤلاء فى سن صغيرة يحتاجون الى الارشاد فان هذا يجب ان يكون خاليا من الاستبداد والتسلط . لاننا يجب ان ننشد مبادىء الثورة الكبرى ، اى الثورة الفرنسية ، فى البيت قبل ان ننشدها فى المجتمع . اى يجب ان نعمم مبادىء الحرية والاخاء والمساواة بين اعضاء البيت قبل ان نعممها فى المجتمع

ويجب ان يتمرن اعضاء العائلة على ممارسة النظام الديمقراطى فى البيت قبل ان يمارسوه فى المجتمع . لان البيت الديمقراطى هو الاساس للمجتمع الديمقراطى

واعظم مايكون الشخصية فى الرجال والنساء هو الحرية . اى الحرية التى تلقى على عواتقهم تبعات وواجبات يتحملونها .. فيؤدى تحملها الى نموهم . واذا انعدمت الحرية من البيت استحال الى سجن . وبعيد بل محال ان تتكون الشخصية فى السجن حيث لا مجال للحرية اى للاختيار والتفكير واحساس التبعة والواجب ،

هذا الاحساس الذى ينشط الذهن والجسم ويحمل على التفكير والعمل .

وفن الحياة هو فى النهاية فن تكوين الشخصية الراقية . اذ ليس شىء اجمل فى هذا الكون من الشخصية اليانعة التى عاش صاحبها فى حرية الفكر والعمل وفى تحمل التبعات والواجبات حتى ارتقى وتدرب وتمهر وصارت له فلسفة تعين اتجاهاته وغاياته . فهو يسير فى الدنيا وهو على نور وفهم واحساس.

ونحن فى مصر ، للعبء الباهظ الذى نحمله من تقاليدنا الماضية، نتوجس من الحرية ونخشى الاختلاط ونضع القيود والحدود هنا وهناك امام الاطفال والفتيات والسيدات . فلا تجد شخصياتنا التربية التى تؤدى الى انضاجها وايناعها . فينشأ الشاب وهو فى خوف للدنيا لايقتحم فى تفكيره او عمله . وتنشأ الفتاة وهى محجمة متراجعة تلتزم الصمت والسكون والاستحياء والتراجع كأنما هذه خطة حياتها او هى الاعتذار عن حياتها . فلا تحيا الحياة المليئة ولا تزدان برشاقة الايماءة ولباقة الكلمة ولاتستطلع ولا تدرس ولا تخطىء ولا تجرؤ ، ولذلك تخسر كثيرا من جمالها الروحى ، هذا الجمال الذى لايعوض منه جمال الجسم الذى يبدو عندئذ راكدا جامدا . وهو كذلك بالمقارنة الى الفتاة الاوربية التى تتذبذب حيويتها طربا فى شخصية مغنطيسية تواجه الدنيا فى شجاعة وانطلاق واستطلاع فى حين تواجه فتاتنا المصرية دنياها فى تقلص وخوف من الاستطلاع . وذلك لان الاولى عاشت فى حرية فى حين عاشت الثانية فى قيود التقاليد .

ولذلك يقتضينا فن الحياة أن نجعل الحرية تستفيض فى البيت . واذا قضى الحظ أن يتزوج الشاب فتاة دونه فى الثقافة فيجب ان يداب فى رفعها الى مستواه وأن يجعل من وسطه

الاجتماعى مايحملها على الارتقاء ، نعنى بذلك أن يختار من الضيوف والزائرين ، الذين يتبادل وإياهم الزيارة ، اولئك الاحرار المتعلمين الذين يخجلونها ويحضونها على ان تثقف عقلها وان تتجه الاتجاهات التى تزيد البيت فنا وجمالا كما تزيد حياتها نضجا وإيناعا

وقد يتعب الشاب فى سنيه الاولى من الزواج وهو يوجـــه زوجته هذا التوجيه ولكنه يجد المكافاة بعد ذلك على هذا التعب فى سنوات عديدة من الهناء الذى تثمره مزاملة قائمة على المساواة الحقة فى الميزات والتانقات الذهنية وفى تربية الضمير وانضاج العقل

اما اذا اهمل تثقيفها فانه سرعان مايجد الانفصـــال الروحى قائما بينه وبينها بحيث يعيشان وكانهما جاران يشتركان فى ماوى

وكما نخشى نحن حرية المراة كذلك نخشى حـرية الصـبيان فنحرمهم ما لانحرمه حتى الحيوانات التى يتمتع اطفالها بالطفولة والصبا فنرهقهـم بالدرس فى الوقت الذى تصرخ فيه طبيعتهم بالرغبة فى اللعب والمـرح . بل احيانا ، وحين يزورنا ضيوف ، نحاول أن نمنعهم من الاختلاط بهم وبذلك نحرمهم التربيـــة الاجتمـــاعية الحســـنة التى يستعيضون منها تربية اجتماعية فاسدة باختلاطهم بزملاء لهم قد نشأوا فى بيئة غير حسنة .

وشبابنا فى مصر يجهلون أشياء كثيرة عن البيوت الاوربية ، وهم يقـرأون القصـص او يرون المسرحيـات السينمائيـة التى تعرض شذوذات الحياة أكثر مما تعرض قواعدها فيتوهمون السوء والزيف فى حياة المتمـدنين . . وينشأون على استمساك بالحياة الشرقية التقليدية ويتعصبون لها فينـكرون الحـرية على المراة والاولاد ويمارسون معهم حيـاة الانكفاف والاحجام ، تلك الحياة التى تجعلهم يعيشون فى نسك او مايقاربه ، ويكرهون متع الحياة العائلية ويتوقونها .

اجل . ان شبابنا يجهلون ان الخادمة الاوربية تقتنى مكتبة فى غرفتها لاتقل مجلداتها عن مائتى او ثلاثمائة مجلد وهى تصر على ان تكون لها ساعات فراغ للقراءة والدرس . ويجهلون ان الضيافة لاتنقطع فى البيت الاوربى الراقى وان الاولاد يدعون اصدقاءهم الى ولائم فى البيت فيجدون التشجيع من آبائهم على هذا النشاط الذى يكسبهم المرانة الاجتماعية والضيافة الراقية . وان الاختلاط بين الجنسين لاينقطع منذ الطفولة الى الشيخوخة وهذا الاختلاط يدرب الفتى والفتاة على الرشاقة ويوجه الغرائز الجنسية وجهتها السوية ويمنع الشذوذات البشعة التى تفشو فى المجتمعات الانفصالية فى الامم الشرقية . فالحياة هناك املأ وامتع والشخصية اتم واينع

اجل ليست الدنيا للناسكين المتكفين ، وانما هى للمقدمين المجربين الذين يستطلعون ويعملون . ونساء اوربا يعملن وينتجن ويختلطن . وهن بهذا السلوك يتكملن وينضجن . فالمراة تبدو هناك وهى فى الثلاثين انسانا قد جرب وعرف ، واخطأ واصاب واستطلع ودرس . فى حين ان المراة عندنا تكون فى هذه السن قد التزمت البيت وارتفعت حدوده وجدرانه فحددت بذلك امداء عقلها ونشاط روحها وسجنت مواهبها وعطلت ضميرها .

يجب أن نعيش فى حاضرنا

نحن لا نعيش حياة واحدة لأننا حيوات مختلفة : حياة الطفولة ثم الصبا ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة • ولكل من هذه الحيوات أفراحها وأتراحها واختباراتها وليس من حق أحد ، كالوالدين أو المربين ، أن يحرمنا احدى هذه الحيوات• واذا فاتتنا حياة الصبا بلا تمتع ، واذا عوملنا في أثنائها كما لو كنا شبانا ، فاننا عندئذ نكون بمثابة من لم يحي حياة معينة كان من حقه أن يحياها اذ هي لن تعود •

ولكن هذا هو ما نرى في عصرنا • فان كثيرا من الآباء يحرمون أبناءهم لذة صباهم ويكلفونهم واجبات الشباب اعدادا للمستقبل • كأن الحاضر لا قيمة له ، وكأنه يجب أن يضحى به من أجل المستقبل ، كما يضحي بالصبا من أجل الشباب • وكثيرا ما نرى صبيانا بين الثامنة والخامسة عشرة يقضون فراغهم بعد المدرسة في الدراسة اما بضغط آبائهم واما بترتيبات جهنمية قد اخترعها لهم ابليس حين يحضر المعلمون اليهم في البيت ويقهرونهم على الدرس • مع أن هذه الفترة من العمر تنادي باللعب والمرح وبالتجارب التي يخترعها الصبي لفهم الدنيا • وليس من حقنا أن نحرمه اياها

وهنا نعود الى القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية • فان الاولى تطالبنا بمعاملة الصبي باعتبار أنه صبي فقط يعيش ويستمتع بحاضره • لأن هذا هو حقه الطبيعي • ولكن القيم الاجتماعية تتغلب علينا فنفكر في مستقبله • ولأننا نخشى هذا المستقبل ، للمباراة العامة التي نتوهم أنها تسوده ، نبالغ في تفكيرنا الى حد القلق فلا نفكر في منطق وتعقل ولكن في خوف وفزع • ونسرف في تأكيد الدراسة وحرمان الصبي هناء الصبا أي حرمانه احدى حيواته التي لن تعود اليه • ولو عقلنا لأحسسنا الاجرام الفظيع في هذا العمل •

وليس من شك فى أن نظـام المباراة الذى نعيش فيه ، والذى يسود مجتمعنا ، يجعلنا جميعافى خـوف دائم من المستقبل . ولذلك نكاد نقضى عمرنا كله فى التهيؤ لهذا المســتقبل . وهذا الخوف يستحيل أحيانا الى قلـق نيوروزى أى ارهاق نفسى نعجز عن تحمله . وهو يبدو فى خوف أو فزع . فان البخيل الذى يحرم نفسه لذة المتع الصغيرة وهو يجمع قرشا على قرش انما يفعل ذلك لمركبات نفسية هى فى حقيقتها أمراض يحتاج الى المعالجة منها . وهو حين يسأل عن الأسباب التى تحمله على هذا البخل يجيب بأنه يخشى المستقبل ويتهيــأ لليوم الاسود بالقرش الابيض . مع ان من يتأمل صميم نفسه يعرف أنه لن يخرج هذا القرش الابيــض المدخر مهما اشتدت الحلوكة فى هذا اليوم الاسود المنتظر . لأن الواقع أن البخل نشأ عنده من خوف المباراة العامة التى لا تجعل أحدا مطمئنا على مستقبله فأسرف فى التهيؤ لهذا المستقبل . واتجه الوجهة النفسية التشاؤمية حتى صار البخل عادة . وهذه العادة تجعله يعيش على هامش الحيــاة التى قد تطول ولكنها تطول هزيلة بلا عرض أو عمــق . والعــادة لثبوتها تحرمه الترفيه عن نفسه مهما ساءت الاحوال .

ونحن جميعا نحتقر البخل . ولكننا ننسى أننا حين نحرم الصبى لذة صباه انما نتجــه وجهة هذا البخيل فى الخوف من المستقبل . وننسى أننا حين نرصد من وقتنا أحسن ساعاته لاقتناء العقـارات والاثراء انما نتجه هذه الوجهــة أيضا وان كنا لا نبلــغ درجــة البخيل فى الحرمان .

وفن الحياة يقتضينا أن نعيش فى حاضرنا فنتمتع بمتع الطفولة فى طفولتنا . ومتع الصــبا فى صبانا ومتع الشباب فى شبابنا . ولا نؤجل شيئا من ذلك تهيؤا للمستقبل . لاننا لســنا واثقين من هذا المستقبل ثقتنا بالحاضر . فاذا حرمنا الشاب متع شــبابه

بدعوى أنه يستعد للمستقبل فاننا لا نثق بأنه سيعيش الى هذا المستقبل المنتظر ٠

ولسنا مع ذلك ننكر هذا المستقبل ونتعامى عنه ٠ ولكنا نعتقد أن من يعيش في حاضره انما يعيش أيضا لمستقبله ٠ ونعني المعيشة السليمة ٠ فان هناك فرقا بين اثنين يخافان المستقبل ٠ أحدهما يبخل ويقتر ويبالغ في الحرمان والآخر يؤمن بأداء قسط سنوى لاحدى شركات التأمين مثلا

وهناك أيضا فرق بين تلميذ يدرس في المدرسة ويلعب خارجها أو يستمتع بصباه أو شبابه، وبين آخر يرهق بتكاليف مدرسية أخرى في بيته ، تراه قد حبس نفسه بعيدا عن والديه وأخوته وسهر الليالي ٠

والرجل السوى الذى تتزن أعصابه يكتسب من حاضره بصيرة لمستقبله ويستطيع لذلك أن ينظر اليه مطمئنا فلا يجنح الى التقتير ولا يهرول في جهده لاقتناء المال

واذا عشنا في حاضرنا ومارسنا اهتماماته وهمومه ، وتمتعنا بمتعه فاننا بهذا السلوك نفسه ،نجدنا قد استعددنا للمستقبل ٠ فالرجل الذى تعود مثلا القراءة واقتناء الكتب ومداومة القراءة للجريدة والمجلة انما يتمتع بكل هذه الممارسات ولكنه زيادة على ذلك يتهيأ بها لشيخوخه يقظة بعيدة عن السأم والتبلد ٠

وكذلك الرجل الذى مارس عملا كاسبا وانتفع بالتأمينات المألوفة يسير نحو المستقبل في طمأنينة ٠

أما اذا كانت الايام حبلى بمفاجآت ، كما رأينا في الازمات الاقتصادية الماضية ، فان بصيرة العاقل وفزع المجنون وتقتير البخيل ، كل هذا يستوى أمام تلك المفاجآت ٠ أى جميعنا عندئذ سواء ٠ وعندئذ ينتقل الاهتمام بالمستقبل من يد الفرد الى يد

الدولة او يجب ذلك .

ومن المالوف أن نجد شخصا يكد متعبا مهموما فى اقتناء الثروة وفى نفسه شوق الى الاستمتاع. فهو يحلم بالبيت الذى سوف يبنيه او ببضعة الفدادين التى سوف يزرعها ويجد فيها الاتصال بالطبيعة . او هو يحلم بالسياحة فى أوربا . وقد يحلم أيضا باستمتاعات ثقافية مختلفة ويضع فى برنامجه شراء مكتبة تحوى آلاف المجلدات التى تنيره وتثقفه . ويحلم بكل ذلك وهو فى الثلاثين او فى الاربعين ويرصد كل وقته للجمع والاقتناء والاثراء كى يحققه وهو فى الستين .

ومثل هذا يجب أن نقول له : أنتَ مخطىء . لأنك حين تصل الى سن الستين تكون العادات التى مارستها كل يوم من حياتك الماضية قد رسخت فيك فلن تستطيع تغييرها . ثم وأنت فى الستين سوف تكون لك اذواق تختلف عما لك الآن وأنت فى الثلاثين او الاربعين

ولذلك يجب أن تعيش فى حاضرك وتبدأ الآن فى استمتاعاتك وتحقيق أحلامك . ولا تؤجل متعك الى سنين قادمة ربما تموت أنت قبل بلوغها . أو ربما تموت كفاءتك للاستمتاع بها . اذ أن لكل سن متعها الخاصة . فمتع الشباب غير متع الكهولة ومتع الكهولة غير متع الشيخوخة . ومتع الصبا كذلك غير متع الشباب . ونشاطك الآن أضعاف نشاطك فى المستقبل وسوف يأتى عليك يوم وأنت فى الستين حين تكون قد جمعت المال والعقار ثم تحاول القراءة فيحول دون ذلك ضعف العينين . ثم تحاول السياحة فيحول دون ذلك أمراض الكليتين. ثم تحاول الصداقة فلا تجد من يقدرك لضعف جاذبيتك .

أجل . لا تنس المستقبل وفكر فيه . ولكن تفكير العاقل الذى لا يضحى بحاضره من أجل هذا المستقبل

النمو والتطور

عندما نتامل رجلا جامدا رجعيا وآخر متطورا ارتقائيا نجد أن لكل منهما اتجاها قد عين له مزاجا خاصا . فالأول فى صميمه متشائم يخشى الدنيا ويتوقع الكوارث ولا ينتظر خيرا من أى تغيير . وهو لذلك متبلد يؤثر السكون على الحركة . فى حين أن الثانى، ذلك المتطور الذى لا يبالى التغيير ، متفائل بالدنيا يؤمن بالارتقاء كأنه ديانته السياسية الاجتماعية . وهو يدعو الى نهضة ما فى السياسة أو الاقتصاد أو الى تغيير فى الأدب أو الاجتماع . ولذلك نستطيع، فى معنى ما ، أن نعد الجمود والرجعية مرضين ينشآن من الخوف .

وقد يكون المرجع والأساس لهذا الخوف أن الرجعى قد أسيئت معاملته أيام طفولته فأهين وضرب أو عومل بالكراهة والقسوة حتى صار بعد ذلك يجد أن السلامة والطمأنينة لاتكونان الا فى استبقاء حالته ، اذ هو على الدوام يتوقع أسوأ منها ، والا فى تجنب أى تغيير اذ هو يوجس شرا مما هو فيه .

والجامد الرجعى لا يحيا الحياة الطبيعية . لأن النمو والتطور من سنن الطبيعة التى تشهد بهما ألف مليون سنة من تاريخ الاحياء . ومعنى هذا أنهما أصيلان فى أعماق سريرتنا وأننا لن نعيش المعيشة السوية ولن نقارب السعادة ، أو على الأقل السعادة السلبية ، الا اذا كنا فى نمو وتطور لا ينقطعان طوال حياتنا .

بل أحيانا ، حين نتامل أحلام اليقظة التى نستسلم اليها فى لذة ، نجد أننا نطلب التطور كما لو كان شهوة حميمة فى نفوسنا . اى أننا نحس أننا غير راضين عن حالتنا اذ نداب فى التفكير فى تغييرها . وليس الايمان بالمستقبل، بل بالشجاعة والاقدام، سوى ايمان بالنمو والتطور والارتقاء . وكذلك ليست المحافظة والجمود

والرجعية سوى الجبن والخوف • وكلاهما يحملنا على الركود والتقلص •

والأمم « الشرقية » لفرط ماعانت من مظالم ملوكها الباغين وأمرائها المنحطين وحاكميها الظالمين يغلب عليها الجمود اذ هي على الدوام متشائمة بالمستقبل تخشاه وتتراجع عنه كأنها تريد أن تعيش في الماضي • أما الأمم الأوربية فتكاد ترقص للمستقبل وهي ترضى بالتغير والتطور وقد جعلت الارتقاء مذهبا والتطور منهجا •

وليس من السداد هنا أن ننصح للقارىء أن يكون متفائلا وأن يتجنب التشاؤم • لأن هاتين الحالتين قد تكونتا في الأغلب منذ الطفولة أو لأن كوارث الحياة قد تراكمت فملأت القلب شكوكا وشبهات بشأن المستقبل • ولكن من السداد أن نبين أننا لن نستطيع أن نتطور ، أى نعيش وفق سنن الطبيعة ، ما لم نكن متفائلين • وعلى كل قارىء عندئذ أن يحلل تشاؤمه وخوفه وأن يعرف مرجعهما • وهو اذا هبط على هذا المرجع عاد الى التفاؤل والشجاعة •

وأوضح المظاهر للارتقاء والتطور والنمو هو الثقافة • وصحيح أن هناك من يتجه ارتقاؤهم وجهة مالية أو اجتماعية أو سياسية فيبرزون في هذه الجهات ويجنون منها ثمرات السرور • ولكنها بالمقارنة الى الثقافة تعد ثمرات زائلة متقلبة ليست لقيمتها ثبات القيم الثقافية •

ذلك أننا عند ما نرقى بالثقافة ارتقاء نفسيا ذاتيا لا يستطيع أحد أو ظرف أن ينتزعه منا • والنفس تتطور بالتغير الثقافي فتتجدد وكأنها تستعيد الصبا أو الشباب وتهبط على عوالم جديدة لم يكن لها بها معرفة من قبل •

والذى نحب أن نثبته ونؤكده أنه ما دمنا في تطور ثقافي فاننا

تتجنب السأم والجمود والتبلد فتمتلىء الدنيا حولنا مباهج فلا يكربنا اليأس ولا نجزع من العجز بل نتحمل حتى الكوارث المرهقة ونتحداها .

واذا اعتدنا الثقافة فان الاغلب أننا نخرج منها بمذهب كفاحي للخير البشرى . وهذا المذهب يغذونا وينير بصيرتنا عن دلالة الحياة كما أنه يوفر لنا اهتمامات لا تنقطع . وما دمنا فى هذه الاهتمامات فاننا لن نحس هذا السأم القاتل الذى يغمر حياة المنغمسين فى الملذات حين يأجمونها متبرمين منها عازفين عنها

وفن الحياة هو ، فى معنى ما ، فن العيش فى سرور ان لم يكن فى سعادة . ولذلك يجب أن نوفر لأنفسنا احساسات السعادة بايجاد وسائل الرفاهية الذهنية والمادية .

وعندما نعمد الى دراسة ، نحس احساسا عميقا بلذة التطور . ولذلك نحتاج ، كي نوفرها ، الى برامج ثقافية متواصلة تحملنا على مراحل الحياة وتكفل لنا شباب الذهن وتجدده .

وكلما تقدمنا فى السن ، وخاصة عندما نتجاوز الستين، يتوانى نشاطنا وقد نتبلد أو نجمد . ولكن، اذا كنا قد تعودنا الدراسة وجعلنا منها منهجا للحياة ، فاننا ندخل فى دور الكهولة والشيخوخة ونحن مستبقون لشبابنا مبتهجون بالدنيا قد احتفظنا بكلمات اللغة أى بالافكار . وقد كررنا هذا الكلام . ولكن مهما نكرره فاننا فى حاجة الى تأكيده اذ ليس هناك ضمان للشيخوخة السعيدة الا مع الثقافة الدائمة التى تستبقى الذاكرة فى حيويتها الشابة .

وهناك ألوان من الارتقاء كثيرا ما نأجمها . فاننا عندما نندفع فى اقتناء المال ، أو عند ما نبذل جهودنا كي نحصل على مركز اجتماعي كنا نطمح اليه ، نجد أن الهدف الذى وصلنا اليه دون ما أملنا وتمنينا من حيث قيمته فى جلب السرور الى نفوسنا . الا

الثقافة وحدها فانها تملأنا غبطةولذة أكبر مما كنا نحلم به

ولعل مرجع هذا أن آفاق الثقافة واسعةمتشعبة ليستلها نهاية في حين أن للمركز الاجتماعى أوالمالى نهاية • ولذلك لن نعـــرف السأم اذا جعلناغايتنا منالنشاطوالنمو ثقافية •

ان الثقافة هى نمو العقل، نموالنفس ، بعد أن يقف الجسم عن النمو الطبيعى • فنحن حين نقرأونندرس نهبط كل يوم على جديد نحس فيه التوسع والتعمق اى نحس النمو كأننا نكبر بعد صغر ونتسع بعد ضيق وننظر بعد عمى

إحساس القصد في الحياة

الحياة هى الصحة ، وهى الوقت ، وهى الدراسة ، وهى الاستمتاع • وأخيرا هى احساس القصد بحيث لا نحيا سدى أو جزافا وانما تهدف الى هدف •

وحياة بلا صحة هى حياة ناقصة لا نحيا فيها أربعا وعشرين ساعة فى اليوم ، لان عبء المرض يثقلنا • فنحن نسير فى الدنيا ببطء ونرتاح كثيرا ونلازم السرير ساعات أكثر مما كان يجب لو كنا على صحة تامة • وبكلمة يقل نشاطنا • ولذلك يجب أن نعرف أن التبذير فى الصحة هو تبذير فى الحياة •

وكذلك الشأن فى الوقت • فان اعمارنا محدودة • وقل من يتجاوز منا السبعين أو الثمانين • ولذلك يجب الا نستهلك وقتنا فى السخيف من الاعمال التى لا تثمر ولا تزيدنا نموا أو رقيا • وكثير من نشاطنا يذهب هباء • وهو بذلك ينقص حياتنا بحيث اننا نستطيع أن نقول لمن بلغ السبعين من العمر انه لم يعش سوى خمسين سنة ذلك لانه قضى عشرين سنة فى أعمال سخيفة ونشاط زرى لا يليق بالرجل العظيم • اذ أنه كان يقضى الساعات كل يوم فى العاب الحظ كى « يقتل » الوقت مع أن هذا الوقت هو بعض عمره أى انه لو كان قد تأمل لعرف انه كان يقتل عمره • أوهو كان يشغل ذهنه بالقيل والقال ومشاحنات القضايا فى المحاكم وقراءة المجلات الوضيعة ونحو ذلك •

والحياة هى الدراسة • لان أذهاننا يجب أن تسمو على التفكير الساذج • ويجب أن يكون لها نصيب من العلم والفلسفة والادب والفن • وحياة تخلو من هذه الشئون هى حياة رخيصة لا تستحق هذا المخ الذى يحوى تسعة ملايين خلية •

ونحن حين نبذر ونرسل نشاط هذه الملايين من الخلايا الى التافة السخيف من الافكار انما نكفر بالحياة .

وأخيرا الحياة هى الاستمتاع . وأجمل أنواع الاستمتاع هو الدراسة التى تنير ذكاءنا وتجعلنا نجلو عن هذا الكون غموضة فنفهم ونزداد بذلك انسانية وهو الحب للمرأة أو للابناء والطبيعة والشرف والعدل .

* *

عندما يشرع أحد الاثرياء فى بناء منزل يعمد الى أحد المهندسين ويكلفه وضع « التصميم » أى الرسم لهذا المبنى الجديد ، وهو يفعل ذلك اعتقادا بل يقينا بأن هذا المهندس سيراعى كل ما يحتاج اليه من الاقتصاد والراحة والجمال فى هذا المبنى .

ولم يعد أحد يبنى بلا تصميم ، ولم يعد أحد يعتمد على نفسه فى وضع التصميم . بل هو يبحث عن الخبراء ويؤدى الاجر العالى لهم راضيا لانه يعرف ان المنزل او المبنى « المصمم » أى الذى رسم ودرس قبل البناء خير من المنزل أو المبنى المرتجل .

ولكن هذا الذى نفعله فى البناء نهمله فى الحياة . مع ان الحياة أثمن من البناء . وهى تحتاج الى الترسيم والتخطيط أكثر مما تحتاجه مدينة بأكملها .

وكثير منا يعيشون جزافا أو ارتجالا ليس لحياتهم برنامج أو هدف . وهم لذلك ينساقون بالحوادث بدلا من أن يسوقوا هم هذه الحوادث . والتقلبات تسيطر عليهم بدلا من أن يسيطروا هم عليها . وكثيرا ما أحس وانا أنظر الى أحد هؤلاء ان الدنيا قد دوختة . فهو ذاهل خاضع ذليل . لم يفكر قط فى أن يرسم حياته بيده وأن يعين لنفسه هدفا وان يقبض على مصيره وأن يسلك السلوك الذى يصل به آخر العمر الى تحقيق شهواته

العليا بحيث يعود على تاريخه فيجد انه عاش العيشة المنظمة وأنه نما ونضج بسنى عمره فملأها بالاستمتاع والانتفاع .

ان الاهتمام بالمستقبل كثيرا ما ينتهى الى وسواس جنونى يحملنا على التقتير أو على ايذاء الصبيان بحرمانهم الاستمتاع بحاضرهم كى يعيشوا لمستقبلهم

ولكن الحكيم هو الذى يجعل حاضره ومستقبله كما واحدا . وهو لذلك يضع تصميم حياته فى تعقل بحيث لا يضحى بالحاضر للمستقبل أو العكس . وهذا التصميم يعين له الخطط والوسائل فى صيانة صحته وتكبير شخصيته وتأمين شيخوخته من المرض والفقر والجهل .

ويمتاز الحكيم من الاحمق بميزات كثيرة ربما يكون احساس القصد اعظمها ذلك انه يحيا عن قصد ويرمى من جهوده الى هدف . فى حين ان الاحمق يعيش جزافا ينفعل بالحوادث ولكن الحوادث لا تنفعل به . فهو ينتقل فى عمره من عام الى آخر كأنه ذاهل ينساق بالظروف لا يجد لحياته دلالة أكثر من أنها عام ويمضى بل عمر ويمضى

ولكن الحكيم يحس القصد ويسير نحو الهدف . وهو يعين لحياته برنامجا يؤدى الى هذا الهدف . ويتخذ من أسلوب عيشه الوسائل التى تصل به اليه بل وتجدده . وهو دائب فى السؤال : لماذا اعيش ، وماذا أتمنى ، وما هى بغيتى ، وما هو هدفى فى هذه الدنيا ؟

وهو بهذه الاسئلة يتجدد وينشط . وكأنه ، بتجديد أهدافه ، يولد جملة مرات ويحقق لنفسه عديدا من الشخصيات والافكار . وليس فى كل هذا ما يمكن ان يوصم بالتقلب والتذبذب . اذ هو تطور الى اعلى والى اوسع .

ولذلك يجب ان يكون احساس القصد عميقا فى نفوسنا ، كما يجب ان تكون مراحل حياتنا نحو الاهداف اعلاما للتجـــدد والتطور .

وليس احساس القصد واجبا على الفرد وحده ، اذ أن الحكومات يجب أن تحس هـذا الاحساس أيضـــا ، بحيث يسأل الوزير نفسه عن « سبب وجـوده » فى مركـــزه وعن الاهـداف التى يتخيلها ويدرسها ويحاول تحقيقها لامته .

ولو كان احساس القصد عميقا عنـد السـاسة الذين تولوا شئوننا من قرن لما كنا قد تورطنا فى الكوارث العـديدة التى مرت بنا ، والتى مازلنا نعـانى مغباتها المؤلمة .

واعمار الافراد محدودة ولكن الدولة خـــالدة أو كالخالدة ، ولذلك عليها أن تحس القصد من وجودها وتعين أهدافها التى قد تتحقق بعد عشر سنوات أو مائة أو ألف سنة .

لقد كان دلسبس فى ١٨٦٩ يحس القصد حين حمل الحكومة المصرية على منحه احتكارا يعيش مائة سنة ولكن الحكومة المصرية لم تكن على مثل هذا الاحساس حين منحته هذا الاحتكار . ولذلك سعدت شركة القنـــال وشـقيت الحكومة المصرية

وفى عصرنا هـذا ، بل منذ أكثـــر من قـرن ، عاشت أمم وحكومات شرقية بلا قصــــد ، عاشت جزافا تتخبطها الظروف وتسوقها الحوادث الى أن جاءتها حكومات غربية تعيش عن قصد وتعين أهدافها فتسلطت عليهــا وجعلتها المطايا الذلل التى تحقق هذه الاهداف .

ان احساس القصد ، فى الفرد والجماعة ، يحملنا على أن نرتب أذهاننا ونعنى بثقافتنا وأخلاقنا ونضع البرامج لحياتنا

يجب أن ندرس الطبيعة

هذه الكتب التى نجمعها ونتأمل ما فيها من أفـكار الفـلاسفة والادباء والعلماء هى كنز عظيم •وبيت بلا كتب هو صحراء قاحلة يحيا عليها بدو جهلاء

ولكن هناك كتبا أخرى يجب أن نقرأها فى الطبيعة، فى الارض، والسماء، والبحر، والنهر، والحقل، والجبل •

وحقولنا فى مصر تزرع بغيـةالاتجار بمحصولاتها• ولذلك فقدت فى أعيننا تلك الصلة الحميمة التى كان يجب أن تربطنا بالارض • وخاصة لان أهم ما يزرع فيها هوالقطن الذى نحسب قيمته بالجنيه والقرش • ولو أن الارض عندناكانت تزرع للغـذاء فقط وليس للشراء لكان لها مكانة أهم وأجمل فى قلوبنا

واحساسنا نحو الارض ، حين نجد الذرة أو القمح أو الفول أو البرسيم ناميا عليها، هو احساس جميل ، احساسنا نحـو الام . فنحن نأكل تراب الارض بعد أن تحيله هذه الأم الى حبوب جميلة والى مراع للماشية • ولا نحس هذا الاحساس حين نراها مزروعة بالقطن ••• لتجـارة القطن فى البورصة

ان هذا النظر التجارى للريف المصرى قد أحاله الى قبح ودمامة• اذ يعيش المالـــكون للأرض فى المدن ويتجرون بالايجـــارات لأرضهم ولا يبالون من يفلحونها•ولذلك لا تكاد تجد صاحب أرض فى مصر يزرع فى أرضه شجرةاو يربى حيوانا غريبين • بل هو حين يزور ضيعته لا يعرف كيف يميز بين أسماء الطيور التى تطير فى سمائها • ولم يقعـد قط فى شهر مارس ، شهر الغرام ، كى يراقبها ويستمع الى نداءات الغرام فى قصائد الغزل التى تؤلفهـــا وصرخات الخـوف وصـيحات الغضب بين ذكورها واناثها

وثقافتنا الريفية لا تكاد تتجاوز تلك المعـــارف النفعية التى يمارسها الفلاح كى ينتزع العيش من الارض• وهو لفقره وما يمارس

من حرمان ظالم، يكاد يكره الأرض اذ هي أقرب الى أن تكون ظئره القاسية من أن تكون أمه الرحيمة. وهناك ألوف من الفلاحين لم يزرعوا قط شجيرة لجمال أزهارها أو عطر زهرتها. ولم يجمعوا قط طاقة من الورد يتشممونها، لأن لقمة الخبز، خبز الذرة تستحوذ على كل تفكيرهم ونشاطهم. وهذا هو ما فعلنا بريفنا

لا. ليس الريف تجارة. انما هو معيشة

يجب ان نعيش فى الريف كى نسهر لياليه فى ضوء القمر ونحس السحر فى الطبيعة. أو نتأمل النجوم فى ظلام الليل ونحس الدين. أو نربى مجموعة من شجر الزهر واليها خلايا النحل ونجمع عطور الزهور، أرواحها، ونأكل من لبن النحل. أو نقعد فى الظهيرة الى حافة قناة جارية تحت قبة من أوراق التوت الخضراء فتجرى أفكارنا خضراء ساذجة عن الحب للفلاحين. فلا نجيز لأنفسنا تركهم يعيشون فى أكواخ من الطين مع روث الماشية، ثم اعتصار دمهم لجمع الاجارات الباهظة

وليس الريف مع ذلك هو كل ما فى الطبيعة

***

أول اهتمامى عند ما أهبط بورسعيد أو الاسكندرية أو السويس أن أزور أسواق السمك فيها. فهناك أجد اللجاة والسهبيا والريتزا والأنكليس والكابوريا، أسماء قد تجهلها أيها القارىء مع أنك قد تأكلها. وهى جميعها أحياء تزيدنا عند التأمل احساسا بالطبيعة. وقد تحثنا على أن نزور متحف الاحياء المائية فترى هناك عجائب من دنيا البحار. بل هى قد تثير استطلاعنا فنعود أطفالا نجمع المحار من الشواطىء. ونتساءل. وقد نجد من يجيبنا فيخبرنا بأن فى العالم آلاف الانواع من المحار وأن هناك على جبل المقطم محارا أيضا يدل على أن جبل المقطم كان بحرا

يجب أن نربى قلوبنا على حب الطبيعة وعقولنا على فهمها

وما أحسن أن نسيرعلى شاطىءالنيل من القاهرة الى أسوان فى فصل الشتاء ومعنادفتر ندون فيه ونرسم على أوراقه ما نجـــد من مناظر وأسماء وألوان • وما أجمل أن تتألف جماعات لهذا الغرض

ان الروح التجارى الذى يسودنا يقول : هذا ضياع للوقت

ولكن الفيلسوف ، وكلنا فلاسفة على الرغم منا ، يقول : هذا حب للطبيعة ، هذا درس للأم ،هذه حياة •

الاتصال بالطبيعة

لا يسهل على أى انسان أن يتجرد من القيم الاجتماعية ، أو حتى يتسامح فى الكثير منها ، الا بمجهود شاق يضنيه ويقيم من المجتمع ، الذى يرتضى هذه القيم ، خصما له . ولكن يجب أن نتنبه من وقت الى آخر الى هذه القيم الاجتماعية ، حتى لا ننساق فيها ذاهلين . وحتى لا ننسى أننا بشر قبل أن نكون مصريين أو فرنسيين أو عربا . واتصالنا بالطبيعة جدير بأن يحدث لنا هذا الاحساس

ذلك أن حياة الحضارة تغمرنا وتسومنا أوزانها وقيمها . فالنجاح فيها يقاس بالقدرة على اقتناء المال . والجمال فيها أثاث فاخر أو جواهر غالية أو سيارة فارهة أو رسم على جدران أو نحو ذلك مما ننساق فيه فنتوهم أننا سادة نختار ونقرر مع أن الواقع ، أننا فى الأكثر ، عبيد العرف الاجتماعى الذى يأبى علينا الاستقلال

ومن وقت لآخر نرى أو نقرأ عن أولئك البشريين الثائرين على هذا العرف الاجتماعى . مثل تولستون الذى هجر المدن وعاش فى ضيعته يصنع حذاءه بيديه . أو غاندى الذى نزع عن جسمه ملابس الحضارة وقنع بشملة يبسطها على عاتقيه أو يأتزر بها . وهذا الى قنوعه من الطعام باللبن والفواكه . أو ثورو الكاتب الامريكى الذى ترك المدن وبنى لنفسه كوخا لم يكلفه أكثر من ستة جنيهات عاش فيه سنتين الى جنب الغابة حيث كان يحصل على طعامه من صيد السمك وصغار الحيوان والطير . وقد قال عن هجرته هذه فى الغابة وحياة الفطرة .

« انى اردت أن أسوق الحياة وأحرجها فى زاوية كى أعرف هل هى شىء جليل أم حقير ؟ »

وبكلمة أخرى أراد ثورو أن يخلو الى نفسه ويستمع الى همساتها بعيدا عن ضوضاء المدينة وضجيج الحضارة ، خاليا من تكاليفها الصغيرة والكبيرة كى يستكنه أسرارها ويصل الى

أصولها ويتعرف الطبيعة ويقف على علاقته منها ومراسيه فيها .

وكلنا يحس فى أعماق القلب والمخ أننا فى حاجة الى مثل هذه التجربة . وان العمر لا يصح أن يقضى على هذا الكوكب وهو مبعثر بين هموم واهتمامات صناعية أى صنعتها لنا الحضارة .

ولذلك يجب على كل من ينشد الحياة الفنية أن ينظم هذه الحياة بحيث لا تنقطع عن الطبيعة وبحيث تبقى القيم والاوزان البشرية ماثلة فى ذهنه عالقة بقلبه يشتهيها ويتعب لها ويستمتع بها . وهو عندما يفعل ذلك ، وعندما يألف الطبيعة ، سيحس أنها ، أى الطبيعة ، تحوى ألوانا من الجمال فى الشفق عند الغروب ، وفى شموس الليل أى النجوم ، وفى بزوغ الشمس عقب سكينة الفجر ، وفى رهبة الجبل ، وبسطة الصحراء ، بل فى تنوع النبات والحيوان ونضرة الحقول ، ممايجعله يحتقر الكثير مما تحملنا الحضارة على اقتنائه ونتعنى فى جمعه والتفاخر به .

وليس من الضرورى أن نسلك سلوك ثورو فى الهجرة الى مكان قصى نعيش مستوحدين سنتين أو أكثر كى نصل الى جمال الطبيعة وكى نهتدى الى مراسينا منها . فان اللجوء الى الريف من وقت لآخر ، وقضاء الايام بل أحيانا الساعات فيه ، يضىء بصيرتنا ويقرب ما بيننا وبين الطبيعة ويحملنا على التخلص من الزيادات والنوامى التى تنمو حولنا كما تنمو الاعشاب والطفيليات على جسم السفينة فتعطلها عن الملاحة . فان غاندى لم يخسر حين نزع ١٥ قطعة من الملابس الحضارية واكتفى بقطعة واحدة . اذ الواقع أنه كسب . أو بكلمة أصح : هو كسب من حيث القيم البشرية وخسر من حيث القيم الاجتماعية .

وأحيانا حين أقعد فى الريف وأتأمل القمر وهو يحيل كل شىء على الارض الى خلق سحرى ، أو حين أتأمل النجوم وأنا أعرف أن

كل نجم يضيء أكثر مما تضيء شمسنا ، أو حين أتأمل الشفق فى رائعة جماله ، أو حين أخرج فى الفجر أنتظر بزوغ الشمس والدنيا هادئة صابحة كأنها لم تخلق الا منذ دقائق ، أو حين أتأمل قطرات الندى وهى ترتعش فى الصباح على أوراق الشجر ، أو أتأمل أسراب الغربان وهى عائدة الى أعشاشها عند الغروب ، أو اليمام وهو يغازل على استحياء وفى طمأنينة ، أو حين أتأمل هذه الحرب الخفيه السرية بين النبات والحيوان فى ديسة أو خميلة على جدول ، أتعجب من انسان يرضى بقضاء دقيقة واحدة فيما يسميه قتل الوقت على المقهى بدلا من أن يجرى ساعيا لاهثا الى الريف كى يختبر هذه الدنيا فى أعماقها وصميمها .

وأتعجب من انسان أو بالاحرى انسانة ، تعتقد الجمال فى عقد من اللؤلؤ أو قلادة من الالماس مع أن جبلا من هذه الجواهر لا يساوى فى جماله جمال الشفق أو القمر .

ويفشو الجهل بالطبيعة ، أى بالدنيا ، حتى لنجد انسانا ، يعرف ، طائفة من المعارف الميكروسكوبية عن الأدب أو العلم . وهو يجهل هذه الدنيا العظيمة وطنه الاول . فلا يعرف روائعها من جماد ونبات وحيوان .

وقد جزأتنا الوطنية أجزاء على هذا الكوكب . حتى صرنا لا نشتاق الى رؤية جبالنا الشامخة مثل هملايا أو مدافقنا الرائعة مثل نياجرا . لأننا نحس كأن جبل هملايا هو ملك خاص بالهنود ونياجرا هو ملك خاص بالامريكيين أو الكنديين .

بل الواقع أننا لا نشتاق الى رؤيتهما لأن القيم الاجتماعية قد تغلبت علينا . فنحن نهتم باقتناء البهارج «الجميلة» بدلا من الاهتمام بالاقتناء النفسى لجمال هذا الكوكب . وكثيرا ما أدخل البيوت التى تمتاز بحدائق فأجد أشجارا أسأل أصحابها عن أسمائها فلا

يعرفون .. لأنهم انما غرسوها انسياقا وراء العرف وليس تقديرا لقيمة النبات أو احساسا بأن الشجر قريبنا نحن . اذ هم يعيشون في عزلة وجودية ولذلك لا يهتمون بالتعرف الى اسمه أو أصله .

وأحيانا أجد من الحسن أن أرد بعض الذاهلين الى التعقل وأعيد اليهم القيم البشرية بأن أسأل أحدهم : هب أنك أصبت بمرض قاتل ووثقت من الاطباء أنك لن تعيش على هذا الكوكب سوى عام واحد. ثم خيرت بين أن تقتني ألف أقة من الألماس واللؤلؤ ومائة قنطار من الذهب ، أو تقضي هذا العام الباقي من عمرك على هذا الكوكب في زيارات رائعة الى القطب الشمالي وجبال هملايا ومدافق نياجرا وغابات افريقيا، ترى بواسق الشجر ووحوش الحيوان وتشترك في صيد القيطس عند القطب الجنوبي وترى الفيلة في غاباتها في الهند. أجل . وفوق ذلك تعرف الشعوب البشرية في الهند واليابان ونروج واستراليا، وترى الانسان البدائي والانسان المتوحش والانسان المتمدن . ومقدار التدمير الذي أحدثه هذا الاخير بكنوز كوكبنا.

لو خيرت بين هذين لاخترت بلاشك أن تقضي عامك في زيارة الارض التي عشت فيها ماضي عمرك وأنت محبوس محجوز في بقعة معينة تظن أنها كل شيء وتقضي سنيك في اقتناء بهارج ليس لها غير القيمة الاجتماعية التي تعمينا عن الاستمتاع بكوكبنا

ولا بد ان البشر في المستقبل سينفضون عن عواتقهم التكاليف الباهظة العديدة التي يتحملونها الآن من الحضارة ويفكرون في القيم البشرية . وسوف يجدون في الآلات المنتجة ، بل في الطاقة الذرية ، مايجعل العمل الانتاجي سهلا لايحتاج الى قضاء الوقت او الجهد العظيمين ، وعندئذ يعود هذا الكوكب وطن البشر جميعا . وعندئذ تصير الجبال والبحيرات والغابات ، بما تحفل

به من حيوان ونبات ، كنوزا يحتفظون بها ولا ينقطعون عن زيارتها

والى أن نصل الى هذه الحال يجب ان تذكر انفسنا على الدوام بضرورة اتصالنا بالطبيعة ويجب ان نحتال بالتوفيق بين ضرورات العيش والمجتمع واللجوء الى الريف • ويجب ان تكون لنا هوايات ريفية طبيعية • فان صيد السمك ينزعنا احيانا يوما كاملا من الوسط الحضارى الصناعى الى وسط طبيعى • وكثير من المفكرين يحتاج الى مثل هذه الهواية التى تختمر فيها الكامنة وقت السكينة عند شاطىء النهر ثم يؤدى اختمارها الى تهيئة العقل للانتاج المثمر

أجل يجب ان نتنبه على الدوام الى القيم البشرية ، ولا ننساق فى قيم اجتماعية تستعبدنا ،ويجب ان نذكر ان الطبيعة ، اى الارض والنهر والجبل والغابة والبحر والصحراء والنبات والحيوان ، هى كنزنا الاول الذى يجب ان نقتنيه اقتناء نفسيا وندرس جماله ونستمتع به وذلك بالاتصال الذى لا ينقطع به •

الاتجاه والرؤيا

الاتجاهات والميول والغايات هي عادات كامنة ، تكيف ، عواطفنا وتوجه نشاطنا وتثير اهتماماتنا . وكثير من النجاح يعزى الى الاتجاه والغاية لان النفس تبقى راكدة ليس لها اهتمام . فاذا تعينت لها غاية ، يهدف اليها النشاط ، نشطت . وكذلك يعين الاتجاه الاسلوب الذى نعيش به

اعتبر صبيا او طالبا يتجه نحو الاولوية في المدرسة وينصبها غاية . فهو يكد ويتعب ويثابر كي يحقق هذه الغاية . ويعود هذا الاتجاه اسلوبه في الدراسة بحيث انه يبتئس كثيرا اذا زحزحه آخر عن مركزه الاول . فهنا اتجاه قد صار عادة كامنة تكيف العاطفة وتوجه النشاط وتثير الاهتمام . وليس من الضرورى ان يكون هذا التلميذ اذكى من غير من المتخلفين عنه وانما هو يمتاز منهم بالاتجاه والغاية . وامتيازه هذا عليهم عاطفي وليس ذكائيا . لان الاتجاه يحرك العاطفة وهذه تحرك النشاط الجسمي او الذهني .

اعتبر كلبا جائعا ، وآخر شبعان . فالاول يتحرك بعاطفة الجوع ويمشي وانفه للارض يبحث عن الطعام . وهو في هذه الحركة الجسمية متحرك العاطفة بالجوع متحرك العقل بالتفتيش وأنفه يرشد عقله كما ترشد عيوننا عقولنا . ولكن اعتبر الآخر الشبعان فانه قاعد راكد او نائم

فالعواطف هي التي تحركنا . والاتجاهات والميول والغايات هي عواطفنا التي نتحرك بها الى الدراسة والجد والسعي والاثراء وغير ذلك . وهي كما تحرك اجسامنا تحرك ايضا أذهاننا ، فنتنبه بعد الغفلة وننشط بعد الطموح والركود ، اتجاهات . والتفاؤل والتشاؤم ، وكذلك الفتور .

ولكل منا خارطة روحية اوذهنية أو نفسية يرتسم عليها العالم

ويحـــدد مافيه من قيم وأوزاناجتماعية او بشرية ٠ وبهـــذا جميعـا نتجـه نحو غاية أو نرىرؤيا ونتخذ اسلوبا ٠ فالمتفـائل يتحمس ويتحرك ويجـــد لذةالعيش ٠ والمتشائم يتبلد ويركد ويجد الحياة ماسخة لايتطعمها٠ومن هنا مثلا قيمة الدين عنـــد المؤمن ٠ فانه يجد فيه الرؤياكمايجد الاسلوب ٠ فيكون الدين له بمثابة الصابورة التى تتزن بهاحياته ولا تتقلقل اذا ضربتهـــا الزعازع والكوارث ٠

والرؤيا هى ثمرة التفاؤل ٠لان المتشائم لايرى رؤيا ٠ فـلا يمكن مثلا ان تكون اشتراكيـاتؤمل المســاواة والاخــاء بين البشر الا اذا كنت متفــائلا ٠والعكس صحيح ٠ لان الرجعى المحافظ يؤمن بان الشر غالبعلىالطبيعة البشرية التى لاتتغـير ولا يمكن معالجتها ٠ فهو لـذلكمتشائم بلا رؤيا ٠ ولذلك يكافح الأول ويرقد الثانى ٠

وقس على هذا ٠ فان الرؤىوالمثليات ، كلتاهما تكسبنا روح الكفاح ، وهذا الروح يحملنا علىالدراسة والسعى والرقى ٠ فنجد لذة الحياة فى الكفاح كما نرتقىبه ٠٠

الكفاح للاستعمار والاستغلالوالكفاح للتعصب الدينىواللونى والكفاح للمرض والجهل والفقروالظلم ، كل هذا تتحـــرك به عواطفنـــا وتنشط ٠ بل كدتأقول : تتذكى عقولنا ٠ ونحن بهذه الانواع من الكفاح لانخدمأمتنا فقط بل نخــــدم انفسنا بترقية شخصيتنا ونجعل حياتناحافلة بشئون ومشكلاتاجتماعية وبشرية تجعلنا نتعمق ونتوسعفى الحيـــاة ٠ ونرتفـع الى مستوياتها العالية ٠

وربما كان اعظم الاتجـاهاتاتجاه الحب باعتبـــاره اسلوبا للعيش ٠ لان الحب يزيد الفهماى اننا نفهم اكثر عندما نحب ونفهم اقل او احيانا لانفهمعندمانكره ٠ الا ترى ان الام تفهـــم

الشيء الكثير من ايماءة طفلهـــاو اى طفل آخر اذا كانت تتجه وجهة الحب ؟ • فى حين غـيرهاالجامد او غير المبالى او الكاره ، لايفهم شيئا •

وهناك من يقول ان الحب يعمى • ولكن الحقيقة ان الحب يبصر ويفتق الذهن للفهــم والمعرفة •ولكن الكراهة والحقـد والبغض والنفور ، كل هذه تعمى وتغشى على عيوننا وعقولنا فلا نبصر ولا نفهم •

والرجل الذى يحب الحيــاةالفنية ، ويحبالانسانوالطبيعة، ويحب الثقافة ، يجد انه، بقدرالسعة فى حبه ، يزداد فهمــه وتعمقه ورغبته التى لاتنقطع فىالاستزادة من الفهـــم والدرس والاستطلاع • ثم هو بهذا الحب يجد الرؤيا التى يهدف اليهـــا فى اصلاح منشود أو ظلم يرفع أواختراع يحقق • فيعيش سعيدا بهذه الافكار ويشع ضياء على كلما يمسه كان ذهنه مفصفر يتلألا ويضيء على ماحوله •

ومثل هذا الرجل يدين بدينمقدس • ولا عبرة بأنه يخالف التقاليد • لان الحب هو نقطـةالتبلور فى اختباراتنا وثقافتنا • والرجل الذىيختبركثيراويدرس كثيرا ويتجه وجهة الحب لابد أن يصل الى هذه النقطة وأنيرى رؤيا الحب البشرى • ومن هنا كفاحه وانسانيته لانه فى جميع كفاحه الماضى انما كان يحاولان يكون انسانا انسانيا وانيحمل البشر على ان يكونوا انسانيين•

واذا كان رجل التقاليد ينبزهبانه ملحد أو كافر لانه يضلفى اشتباكاته الثقافية ، فان غيرهمن المتعمقين يعرف ايمانه ، هذا الايمان الذى وصف به فولتيرفى كفاحه للمتعصبينوالمستبدين ازاء رجال التقاليد من كهنةرجالالدين المسيحى فى فرنسا حين قيل عنه انه « الملحد المسيحى » • ونحن الآن نعرف ان الدين

بل القداســـة كانت فى قلبفولتير الخصيب • وان الكفر كان فى قلوب أولئك الكهنة العقيمة

وخلاصة القول ان فن الحياة يقتضينا ان تكون لنا اتجاهات وميول تنتهى الى رؤيا • فنكسبمنها الحب البشرى بل الدين . ونجهد ونخدم فى تفاؤل وحب ، نحب الانسان والشرف والمجـد والصحة والخير ، ونحب الحيوان والنبات والجبال والانهار والرسوم الفنية والمدن التاريخية •وبذلك لا نركد بل نبقى على نشـــاط دائم مستطلعين مكافحين محبـين للخير كارهين للشر

الحياة مغامرة

عندما نتأمل القصص السامية التى ألفها كتاب خالدون نجد أننا انما نقيس هذا السمو بشيئين : اما بشخصية فذة تغمر القصة وتجعل من العيش اقتحاما، وتجد مرح الحياة فى المغامرة والدخول فى الغمر العباب دون القناعـــة بالشواطىء والمخاضـــات ، وأما نجد ، بدلا من هذه الشخصية، مشكلة حيوية عظمى نصل فيها الى الاعماق فنفهم أكثر ونعرف أكثر فى الحياة .

ومع اننا نقرأ كثيرا فانه قلما يخطر ببال احدنا أن يعيش فى هذه الدنيا كما لو كان بطـلا فى قصة سامية . وذلك بأن يكون هو نفسه شخصية فذة أو يكون قد اعتنق مشكلة من مشـــكلات البشر الحيوية فيطابق بينها وبين نفسه ويعيش لها . فهى هـــو وهو هى .

ولكن الواقع ان كثيرين منا ، على الرغم مما قلناه ، يطابقون بين حيواتهم وبين القصص التى يقرأون . فالشاب الذى ينكب على قراءة قصة ما انما يطابق بين نفســه وبين هذه الغراميات الناجحة فى القصة . والفتاة التى تدمن الذهاب الى دور السينما انما تطابق بين نفسها وبين فتيات الدرامه التى تشاهدها . وهى تعيش ، بجميع احساساتها، فيما ترى من اقتحامات هؤلاء الفتيات ولكن ، وهذا هو المهم ، هذه القصص والدرامات ليست سامية . ولذلك فان المطابقة بين قارئها أو مشاهدها وبين ابطالها أو حوادثها ليست مما يرفع أى ليست مما يساعدنا على ان نجعل حياتنـــا سامية نعيشها فى فن وحـــذق وتأنق ومجد .

ولذلك يجب ان نجعل حياتنا مغامرة . بل هى كذلك من أول ساعة نخرج فيها من الرحم الى هذا العالم . فان المـوتى الذين لايطيقون هـــذا الخروج كثيرون جدا . فاذا كانت بداية حيـــاتنا

مغامرة فيجب الا يغيب عنا هذاالرمز ويجب ان نستبقى هذا الشعار سائر عمرنا . ويجب الانسى ابدا أن الطمانينة التى نتوخاها هى على الدوام جزئيةونسبية وظرفية . لانالطمانينة التامة هى الموت .

ومن اجمل أو احكم الكلمات التى خلفها لنا نيتشه قوله : كل مالا يقتلنى يقوينى . وايضاقوله : عش فى خطر . وذلك ان الحياة اختبارات فاذا واجهنا خطرا وخرجنا منه دونان يقتلنا فقد كسبنا الاختبار ، وازددنا بذلك عرفانا للدنيا وحكمة فى الحياة . واذا عشنا فى خطر زال عنا الذهول الذى تتسم به العامة وصرنا فى يقظة وتنبه وذكاء وفهم فتكون الدقائق عندنا بمثابة الساعات عند غيرنا . والساعات بمثابة الأيام

والحياة القصيرة الحافلة بالمغامرات والاقتحامات خير من حياة طويلة هزيلة يعيشها الانسان فى ذهول ، كانه بلا عقل أو ضمير . والمخترع والمكتشف كلاهما يعيش مغامرا لانه يسير فى أرض مجهولة لايعرف نهايتها . وهوفى هذا الاكتشاف أو الاختراع يحس من لذة الحياة ما يجعله ينسى جميع المشقات والمصاعب ، ومن منا لايحب مغامرة كولومبية يعيش فيها شهرين أوثلاثة اشهر فقط وهو يتطلع الى قارة جديدة ويكاد يهبط عليها بدلا من قضاء مائة سنة وهو منزو فى شارع لاتضيق حدوده الجغرافية فقط بل تضيق فيه أيضا حدوده الذهنية والنفسية .. ؟

ونحن نعجب بحياة نابليون او غاندى لاقتحامات الارل الحربية واقتحامات الثانى الروحية . ونقرا سير القديسين والمصلحين والمخترعين فى شوق لاننا نطابق بينها وبين انفسنا فى رغبة حارة للاقتحامات التى امتحنت حياتهم فخرجوا منها اوفر حكمة واعمق فهما

ولنا مما قلنا عبرتان : العبرة الاولى الا نلتزم الدعة والطمأنينة فنحجم ونتقلص ونتراجع امام الاخطار . والعبرة الثانية الا نبالغ فى شان الكوارث التى تصادفنا . لاننا ، مادمنا لم نمت فيها ، سنعيش وقد كسبنا اختبارها ومعرفتها اللذين ازددنا بهما فهما وحكمة

وكتب الادب العالى تكسبنا من الاختبارات ما لانحصل عليه فى مجتمعنا . والشعر العالى هو احسن ما فى الادب . لان الشاعر يعرف انه لن يثير فى القارىء حماسة او يلهب فيه نارا الا اذا ارتفع عن المبتذل المالوف من الاختبارات سواء فى الموضوع أو فى التعبير . فهو يحملنا على اقتحامات ذهنية حتى ولو كانت هذه الاقتحامات مقصورة على التعبير واستخراج المعنى الخفى الفذ من الموضوع الواضح المبتذل

واسال ايها القارىء ، اى انسان متقدم فى السن . فانه لابد آسف على تلك الفرص التى عرضت له ولم يغامر فيها بل آثر الدعة والطمأنينة . وهو لا يأسف لان الفرصة كانت تلوح له من الفرص الكاسبة بل لانه يحس انه كان يكون اسعد لو انه كان قد اختبرها وعاش فيها.

وقد كان المتنبى يقول :

وكل شجاعة فى المرء تغنى ولا مثل الشجاعة فى الحكيم

الشجاعة مع الحكمة تغنى فى النهاية . العاطفة مع التعقل اى الشراع مع الدفة . العاطفة تدفع والوجدان يوجه .

وخوف الاقتحامات هو فى صميمه خوف الحياة او هو اسف على الخروج من الرحم وحنين الى العودة اليه. والرجل الذى يخاف لايعيش غير تلك الحياة النباتية البقلية ، يعيش آمنا فى مكانه يخشى ان يتزحزح لئلا يسقط .

الحياة المليئة

عندما نتأمل المخ البشرى ، وهو آخر مخترعات الطبيعة وقمة التطور ، نجد شبكة من ملايين الخلايا التى تربط وتستطيع ان تؤلف ملايين الافكار والمركبات الذهنية الجديدة ولكننا نقنع من حياتنا العقلية العادية بالقليل من هذه الافكار . حتى لنستطيع ان نقول ان عشر المخ كان يكفينا . ولو اننا عنينا منذ ميلادنا بالحياة الفكرية ، وجعلنا التربية تتجه نحو الاستنباط والاختراع والتفكير البكر ، بدلا من التسليم والجرى على الاسلوب الفاشى ، لو اننا عنينا بهذا لكان كل منا فيلسوفا او عالما مخترعا . لان فى المادة المخية من ملايين الخلايا ما يتسع لملايين المركبات الفكرية ولكننا نتركها بائرة فى جدب بلا حرث او غرس . فلا نعيش ملء حياتنا الذهنية بل نقنع بالقليل منها .

وحياتنا الفكرية هى بعض حياتنا البشرية ، وان يكن هذا البعض افضل ما نملك . ونحن للاسف لا نعيش ملء حياتنا البشرية . فقد تطول حياتنا ولكنها لا يكاد يكون لها عرض او هى تمتلىء بالسنين ولكن هذه السنين لا تمتلىء بالحياة .

وهنا تخطر بالذهن كلمة « الحماسة » التى اختارها ابو تمام لمجموعة الاشعار التى جمعها من الشعراء الذين سبقوه . فان البيت الخالد من ابيات الشعر هو العدسة التى تجمع المتشتت من النور فى بؤرة مركزة ، فنحس العاطفة الذهنية فى حماسة تثيرنا طربا او اعجابا او تفكيرا . ومن الحسن ان ننقل هذا المعنى الى الحياة . اذ يجب ان نعيش فى حماسة بلا ركود او جمود او تبلد . ويجب إن تكون حياة كل منا قصيدة من الشعر . بل يجب ان يكون لكل منا « بيت قصيد » اى هدف سام يتبلور فيه النشاط وتتجه اليه الحياة .

وهذه ، كلها من المعانى الفنية ، معانى الشعر ! التى يجب ان ننقلها الى الحياة .

وعند التأمل نجد ان لناثلاث حيوات نمارسها جميعا . وهى فى صميمها ثلاث ذوات .

١ ـ فانلنا الذاتالحيوانية ، ذات الرجع الانعكاسى ، والشهوات والغرائز ، للاكل والتناسل والتسلط ، التى نشاهدها فى الحيوانات الدنيا والعليا .

٢ ـ ثم هناك الذاتالاجتماعيةالعرفية التى نحيا فيها بعادات المجتمع بلا تساؤل او معارضة

٣ ـ واخيرا هناك ذاتناالعالية ، ذات التعقل والقدرة على ان نرى الدنيا بما يقارب حقيقتها عندما نتجرد من غرائزنا وننظر النظر الموضوعى .

والحياة المليئة هى حياةالتعقل التى تحملنا على التخلص من الانانية الآسنة الى الغيرية الحبة فنتوسع ونتعمق بما يشبه البر الذهنى . كأن حياتنا ليستمقصورة على ابعادنا الجسمية الشخصية بل تشمل غيرنا من البشر . وقد تكون هناك حياة أملأ ، هى تلك التى يقول بها اويبصر بها فرويد ويسميها « الحاسة الاوقيانوسية » اى زيادة فى الاحساس تجعلنانحس الاندغام الشخصى فى الكون كلهبحيث نحيا فى ذراته وجزيئاته وكواكبه ونجومه ونباته وحيوانه

ولكن هذا حدس فقط . وقصارى مانستطيع ان نقوله فى يقين ان الحياة المليئة تحتاج الى سخاء وتفاؤل . لان أعظم مايحدد حياتنا ويقيم حولها السدود هوالبخل ، بخل الذهن وانكماشه . وهذا البخل ينشأ من التشاؤم الذى يحدث لنا الخوف من الاقتحامات فنتبلد ونجمد . ثم نعيش فى حياة ضنينة قليلة

الاختبارات . وقد ننتهى الى اسلوب من الزهد والنسك فنكاد ننكر الحياة

ولست مع ذلك انكر قيمة النسك والزهد . ولكنهما يجب ان يكونا وسيلة وليسا غاية . اى اننا ننسك ونزهد ونعتكف كى نستجم ونعود الى الاختبارات الفنية والذهنية والعاطفية . أى نعود بقوة متجددة لزيادة الاستمتاع . وكذلك يجب ان نمارس العفة حتى نسمو بالتعارف الجنسى الى مستوى من التأنق والفن يرفعنا عن التبذل الرخيص للعاطفة . فنضع التعقل مكان الغريزة الفشيمة . فلا تكون العلاقة الجنسية نهبا وخطفا بل تكون تأملا وحبا ، فنتحدى الجمال فى فن وتفكير اذا تحدى غرائزنا هو فى اغراء واغواء

والحياة المليئة تحتاج – كما يجب أن نكرر – الى وفرة الاختبارات . ومعنى هذه الوفرة ان نعيش لنتعلم وندرس الكتب والطبيعة والمجتمع . ونهتم بالسياسة والاقتصاد والتطور البشرى . نهتم بها جميعا لا متفرجين فقط بل عاملين ايضا . ونعيش فيها بروح الابتكار والتساؤل والاستطلاع حتى نفهم وحتى يستيقظ ذكاؤنا وتستفز شبكة المركبات الذهنية فى خلايانا المخية . واذا ذكرنا البخل فلا نذكره بشأن الحرص على المال فقط وان كان هذا افشى مظاهره . لان اسوأ ما فى البخل نزوعنا فيه الى التبلد والاعتكاف الذهنى والعاطفى وكراهة الاختبارات . اذ هو يمنعنا من ان نحيا ملء حياتنا .

والحياة المليئة تحتاج الى التفاؤل بالدنيا والمستقبل والى السخاء والى دوام الاستطلاع والنمو .

ويجب ان يصدق هذا القول على المراة كما يصدق على الرجل لان اتعس ما يؤدى اليه حجاب المراة ، او العادات النفسية والذهنية المتبقية من الحجاب ، هو اعتكافها فى البيت واحجامها

عن الاختيار والسعى والاستطلاع ، والتعلم بالاختلاط بالمجتمع.

والمراة لاتقل فى الانسانية عن الرجل ويجب ان تكون لهاجميع حقوقه التى تجعله يمارس انسانيته ويربى شخصيته . وهى لن تمارس انسانيتها وتربى شخصيتها الا اذااختبرت وسعت واستطلعت وتعلمت مثله سواءونالت حقها فى كوارث الدنيا التى يتعرض لها الرجل ويتربى بها .

الـهوايـة

فراغنا يزداد . وسيزداد فى المستقبل اكثر فاكثر . وسيكون ملؤه او الانتفاع به من اعظم المشكلات فى التعليم والتربية ، بل سوف تكون الغاية الوحيدة من التربية هى الانتفاع بالفراغ . اى كيف نعيش ١٢ او ١٥ ساعة كل يوم بلا عمل كاسب . اما التعليم الحرفى فلن تكون له هذه الاهمية .

وفى عالمنا الحاضر طبقة من الاثرياء تعيش فى فراغ كامل او تكاد ، لان وسائل العيش الممتاز موفرة لها . اذ ان افرادها يستغلون افراد الطبقات الاخرى ولكن عندما نتامل الطرق التى تتبعها هذه الطبقة الممتازة فى قضاء فراغها او استغلاله نجد انها ليست مما يغرى . فان سباق الخيل وصيد الحمام ، والصيد بالقنص فى مطاردة الثعالب او الارانب ، وقضاء الليل فى المقامرة او العربدة الجنسية او الكئولية ، كل هذا او اشباهه لا يدل على ان هذه الطبقة المترفة الممتازة قد عرفت شيئا يمكن ان يوصف بانه « فن الفراغ » بل هو يدل على ان هذه الطبقة لا تطيق فراغها ولا تستخدمه الا على سبيل الفرار من الوقت بقتل الوقت

وتطور الالات والزيادة فى الانتاج وتوافر الضروريات لكل انسان ثم توافر الكماليات فى المستقبل ، ستجعلنا جميعا فى شبه تعطل . لان طرق الانتاج العلمية التى لامفر من استخدامها فى العالم كله قريبا ستوفر للانسان حاجاته باقل الجهد فى اقصر الوقت . ولذلك سنجدنا جميعا معطلين فارغين معظم النهار والليل نحتاج الى مايشغلنا . فاذا لم نجد المفيد الذى يرفعنا ويرقينا عمدنا الى المضر الذى يحطنا .

بل نحن ، قبل ان نفكر فى المستقبل ، نجد ان حاضرنا يوفر لنا ، او بالاحرى لبعضنا من اعضاء الطبقة المتوسطة ، فراغا

يترجح بين أربع وعشر ساعات كل يوم . فيجب أن نملأه وأن نتعلم كيف نملؤه . وعند الانجليز كلمة « هوبي » لما نسميه بالعربية « الهواية » أى العمل نهواه ونعمله للذة فقط لا نبغي منه كسبا . وعند ما نملأ فراغنا بهواية نجد تخفيفا بل معالجة للتوترات التي نستجيب بها حانقين مرهقين لمصادفات الحياة المعاكسة المناوئة . وكلنا يعرف ان الحركة والنشاط والعمل كل هذه تخفف التواترات وتفرج عن العواطف المكظومة . فاذا كانت الحركة تسير في عمل محبب فان الارادة تتجه اليه في نشاط حتى تستحيل الى حماسة ، ويعود الاتزان النفسي الذى تزعزع من ارهاق العمل الحرفي ، يعود الينا فنستأنف هذا العمل مرتاحين مستجمين

لهذا السبب يجب أن يكون لكل منا هواية . وأن نعلم أولادنا ، وهم فى الطفولة والصبا ، كيف يشغلون فراغهم وان ننفق بسخاء على ما يحتاجون اليه لشغله . وذلك لان فراغهم فى المستقبل سوف يزيد على فراغنا نحن . وسوف يثقل عليهم ، لهذا السبب ، أكثر مما يثقل علينا .

وعلى القارىء ان يقصد الى أحدى المكتبات فى القاهرة ويطلب احدى المجلات التى تعالج الهوايات واسمها « هوبيز » وهى فى الاغلب انجليزية .. ومن هذه المجلات يستطيع أن يستنير وأن ينتفع أو ينفع أولاده .

وأقرب الوسائل الى الانتفاع بفراغنا أن تتعدد اهتماماتنا ودراساتنا وأعمالنا . أو ، بكلمة أخرى ، يجب ألا يكون طريقنا منفردا فى الحياة . لا نعرف غير وسيلة واحدة للكسب والعيش . ولا غير وسيلة واحدة للترفية والترويح . اذ يجب أن يكون طريقنا مزدوجا بل خير لنا أن تتعدد الطرق .

وقلما يخلو بيت فى أوربا من غرفة يستأثر بها الزوج ، لا يجوز

حتى لزوجته أن تتدخل فى ترتيبها • وفى أغلب الاحيان تكون هذه الغرفة منزوية قريبة الى سطح البيت وهى مريحة فى فوضى اثاثها واوراقها ، وهى ملجأ أو معتكف يلجأ اليها الزوج كى ينفس عن كظومه أو يفرج عن توتراته • وهى من المرافق الاجتماعية التى تمهد العقبات وتسوى النتوءات التى تنشأ من ارهاق العمل أو من احتكاكات العائلة •

وقد تكون الهواية دراسة أو دراسات معينة • ومعظم الذين يسعدون بشيوختهم ، حين يحيلهم المجتمع الى التقاعد ، يكونون فى الاغلب قد هووا الدراسة فلازمتهم هوايتها الى الشيخوخة • وهناك هواية أخرى عملية كالنجارة أو تجليد الكتب او ـ للمرأة ـ أنواع من التطريز والوشى والنسج •

وأذكر انى زرت ذات مرة أحد الاندية النسوية فى القاهرة فوجدت طرازا جميلا خفيفا من الكراسى عرفت ، حين سألت عن صانعه ، ان هذا الصانع موظف كتابى فى الحكومة قد هوى هذا العمل واتقنه لا يبغى منه فائدة مادية ، ولكن الفائدة المادية جاءته عفوا بحيث يستطيع الآن أن يستغنى عن وظيفته الحكومية ، ويقتصر على النجارة •

والانسان الذى تشغله هواية ما يسعد بفراغه • ويستطيع أن يتفنن فى هوايته ويتأنق فى أدائها لأنه لا يتعجل ولا يهرول اذ هو فى فراغ ينبسط أمامه • فهو يتقن ويتأنق • وحبذا المرأة تشغل فراغها بهواية مفيدة ترتقى بها اجتماعيا أو انسانيا وتجد فيها أيضا ما يغنيها عن الاستماع للفارغات من النساء اللائى يملأن فراغهن بالقيل والقال •

وربما لا يكون الزمن بعيدا حين تعلم المدارس وتخرج تلاميذها أو طلبتها للحياة وليس للحرفة • وحين تعنى بالفراغ والهوية أكثر مما تعنى بالعمل والكسب ويوجد فى هذه الدنيا

الراسعة لا أقل من الف هواية تنتظر من يبحث عنها ويهتدى اليها • وقد تكون احدى هـذه الهـوايات بذرة لاختـراع أو اكتشاف جـديد يحتـاج اليه البشر • وهل فكرت أيها القارىء وذكرت أن كثيرا من المخترعات والمكتشفات انما كان ثمرة أحدى الهوايات التى ملأت فراغ أحد الهواة ؟

وفى ظروفنا الاجتمـاعية الحاضرة يحتاج كل منا الى هواية : اولا لان حياتنا حافلة بما ينغص ويبعث عـلى توترات وكظـوم مختلفة متكررة . والهواية هنا تخفف وتعيد لنا اتزاننا النفسى لاننا نجد فيها كل يوم انتصـارا وحماسة . وثانيا لاننـا نرتقى بممارسة هواية ما اذ نتعلم فنـا او اي مهارة اخرى تحرك ذكاءنا او عضلاتنا . وثالثا تحول الهواية دون الوقوع فى العادات السيئة.

وانت أيها القارىء عندما تجول فى شوارع القاهرة وتجد المئات من الشبان السـادرين الذين يقعدون على المقاهى ويدخنون فى ذهـول كانهم نائمـون ، او يكرعون الخمر فى غير مبالاة ، او تجد النساء فى انتقاماتهن السيكلوجية بالشجار السافر او المستتر، فانك لابـد عنـد التـأمل واجد ايضا انهم يكابدون توترات وكظوما قد جهلوا طرق التخلص منها . وخير الطرق فى ظروفنـا الحـاضرة هو هواية لذيذة تملأ فراغهم

وفى عصرنا وظروفنا يجد الرجل النـاضج الذى حصل على مقدار من الثقافة ان اعظم هواية تشغله وتملأ فراغه هى الدراسة وخاصة دراسة السياسة فى وطنه والعالم بروح البر والاهتمام لخير البشر .

وكثير مما ذكرنا فى هذا الفصل قد سبق ان اشرنا اليه فى فصول سابقة . ولكنا احتجنا الى جمع بعض الملاحظات هنـا لما لها من الدلالة على قيمة الهواية .

الخلوة

يبدو الانسان كانه حيوان اجتماعى لا يطيق العيش منفردا، وهو يعد الحبس الانفرادى اقسى أنواع الحجر والتقييد لهذا السبب . فان المسجون لا يطيق انفراده بين الجدران فى الزنزانة. ولذلك يعاقب المسجونون احيانا بحرمانهم رفقة زملائهم المسجونين ويوضعون فى الزنزانة . وحضارتنا ، ولغتنا ، وديانتنا ، واخلاقنا، تدل على اننا اجتماعيون نحب الحياة الاجتماعية .

ولكنا ، لاننا نعيش فى مجتمع، نجدنا منساقين فى تياراته ، آخذين باساليبه ، معتمدين على قيمه واوزانه . فتبرز فى احساسنا حقائق العيش والكسب والوجاهة والأبهة ونعمى عن حقائق اخرى اكبر قيمة واعظم وزنا . اى ان الحقائق الاجتماعية التافهة كثيرا ما تغطى على الحقائق البشرية الجليلة .

ومن هنا قيمة الخلوة . فان التفكير بطبيعته اجتماعى ، اي اننا نفكر بالقيم والاوزان الاجتماعية بل بكلمات اجتماعية . ولكنا لا نحسن التفكير الا فى الخلوة بعيدين عن صخب المجتمع وضوضائه . والخلوة والهواية كلتاهما ضرورية لنا كى نجد الاتزان النفسى والتأمل الفلسفى وكأننا بهما نبتعد عن المجتمع ونستقل من جميع اعتباراته ونحاول أن ننحرف عن طرقه واوضاعه كى نرى انفسنا على حدة .

واذا كانت الهواية تربينا لانها تتيح لذكائنا او عضلاتنا تدريبا وتبسط لنا آفاقا ، فان الخلوة تتيح لنا الوقت والانفراد كى نبحث من وقت لآخر مراسينا فى المجتمع ، بل فى الكون . لانها تنزعنا من هذا الموكب الذى نسير فيه ، او بالاحرى نساق فيه ، ذاهلين الى موقف اليقظة والتردد والتأمل والتساؤل : هل نحن على صواب ام خطأ ؟ هل عاداتنا ومألوفاتنا قد غمرت حياتنا حتى

صرنا نعد العرف قانونا ازليا والوضع القائم سنة مقدسة يجب الا تتغير ؟

والتأمل فى الخلوة يرفعنا فوق هذه الاعتبارات لاننا نحاول ان نفهم الفهم الموضوعى ، فهم الضمير والتعقل ، بدلا من الفهم الانسياقى الاجتماعى . كأننا بهذه الخلوة ناخذ من المجتمع « اجازة » كى نفكر وحدنا بلا تدخل منه . فنعتكف ونقارن بين القيم القديمة والقيم الجديدة . وبين ما يجرى وما يجب ان يجرى . وبين القيمة الاجتماعية والقيمة البشرية . والخلوة هى التى تحملنى مثلا على ان احس انى لست مصريا فقط اذ انا قبل ذلك بشرى أنتمى الى ۲۲۰۰ مليون انسان وليس الى ۲۰ مليون مصرى فقط . وهؤلاء هم اسرتى الكبيرة التى ترتفع فوق الوطنية والمذهب والسلالة واللون . هم البشرية التى توج بها التطور بعد الف مليون سنة من الكفاح على هذا الكوكب . وهم الذين افكر فيهم حين اتخيل الانسان بعد مليون سنة او اكثر .

وما ابدع غاندى حين كان يصر على ان يختص بيوم كل اسبوع يصوم فيه عن الكلام . فلا يخاطبه احد ولو لم يختل ولم يعتكف ، لانه فى هذا الصمت يجد خلوة ذهنية يستطيع ان يفكر فيها دون ان يرتطم ذهنه بسؤال او اعتراض او اعتبار .

وكل منا محتاج الى مثل هذا اليوم الاسبوعى . ولكن الخلوة يجب ان تكون مادية لاننا لم نرتفع الى مقام غاندى حتى نأمر فنطاع اى نطلب الا يخاطبنا احد فيسمع لنا . واذا نحن اختلينا وانفردنا وجدنا هذه الفرصة . ويحسن ان نختلى بلا كتاب او جريدة ، ولكن مع ورقة وقلم كى ندون ما يستحق من افكارنا الطارئة . وقد عرفت اللغة العربية كلمة « خلوتى » وهى صفة المتصوف الذى كان يخلو ويعتكف كى يتأمل منفردا دون ان يشغله

شاغل بشرى او مادى . وفى حياتنا مشكلات كثيرة تطالبنا بأن نخلو ونفكر : ما هو الدين ؟ ماهو الشرف ؟ ماهو الكون ؟ ماذا بقى لى من العمر ؟ وماذا انا فاعل به ؟ وما هو برنامجى ، برنامج الحياة ، فى السنوات الخمس او العشر القادمة ؟ هل درست ديانتى ؟ هل درست الفلكيات وهى اقرب العلوم الى الديانة ؟ هل حياتى الماضية او الحاضرة يصح ان تستمر كما هى فى المستقبل ؟ ام هل يجب ان تتغير ؟

ومثل هذه المشكلات تحتاج الى الخلوة لانها بشرية كونية لا تضيق ولا تحد بالاعتبارات القومية او الاجتماعية . والذهن الناضج لا يفتأ يفكر فيها ولكنه لا يحسن التفكير فيها الا فى خلوة . وقد كان جيته يقول : « بدون الوحدة التامة لا استطيع ان انتج شيئا بتاتا »

والواقع ان كل مفكر ، يرتفع الى مستوى عال من المركبات الذهنية ، يحتاج الى خلوة من وقت لآخر . واذا نظم كل منا خلواته وجعل له ميعادا معينا ، مرة فى الشهر او فى الاسبوع ، ويوما كاملا و بعض يوم ، فانه يجد ان فى مراجعته لحياته الماضية ، وفى بصره بالمستقبل ، قد اهتدى الى اساليب واهداف ماكان ليصل اليها لو انه كان قد استسلم وانساق فى المجتمع .

وهذه الحياة الاجتماعية التى تلابسنا فى البيت والمقهى والنادى والمكتبة ، بل حتى فى الجريدة والكتاب ، تحول دون التفكير المثمر وتشغلنا بتوافه وصغائر تتبدد بها حياتنا . ولكن الخلوة تجمع تفكيرنا فى بؤرة وتفتح لنا نوافذ على فضاء آخر قد نجد فيه ما نتغير به الى احسن .

وليست الخلوة التى نقترح بالشىء الجديد . لان الواقع ان كلا منا يخلو ويعتكف من وقت لآخر . فان احدنا يخرج الى

مقهى ناء كى يخلو ويفكر . وعقب الغداء قد «ننسطح» فى الفراش لا لننام بل لنفكر فى موضوع معين . بل ربما قصد احدنا الى طريق متنح كى يمشى فيه منفردا للتفكير . وهلم جرا . فنحن نحس الحاجة الى الانفراد والخلوة ونمارسهما دون ان نحتاج الى ارشاد . ولكن اذا جعلنا خلوتنا معينة بمواعيد كان ذلك انجع لتفكيرنا وانظم لحياتنا .

والخلوة عند الرجل العادى تعادل البرج العاجى عند الاديب او الفيلسوف . ونحن نكره الناسك الذى يجعل حياته كلها خلوة . ونكره الاديب او الفيلسوف الذى لا يعرف من الحياة سوى ان يحتبس فى البرج العاجى . ولكننا نحب من الرجل العادى ان يختلى من وقت لآخر كى يفكر . ونحب من الاديب والفيلسوف أن يحيا كلاهما فى المجتمع ويشتبكا فى شئونه . ثم يختليا فى البرج العاجى للتامل والتفكير .

من هو الرَّجل المثقف ؟

مشكلة الثقافة هى مشكلة الحياة نفسها ، لاننا نثقف انفسنا كى نعيش على أفضل مستوى ،وكى نسعد بالفهم على اوسع الميادين البشرية والكونية . ونحن نتعلم فنا او علما كى نحترفه ونرتزق به ، ولكن التثقف اكبر من التعلم ، لان الثقافة للحياة ، وليست للحرفة .

والرجل الذى يصل الى اسمى مستويات الثقافة ، هو الرجل الذى يحيا الحياة المثلى ، ويفهم الفهم العام . ولذلك يجب ان تبقى الثقافة مشكلة ابدية مبسوطة للبحث والتطور الفكرى ، تتغير بتغير المجتمعات ، وترتقى بارتقاء المعارف .

ومع انى الفت كتابا عن « التثقيف الذاتى » وكيف يستطيع الانسان ان يثقف نفسه ، فانى ما زلت أجول فى هذا الميدان ، واحاول الاسترشاد بالشواغل الجديدة فيه .

وقد قرات مقالا مسهبا للاستاذ « دوبرى » يرى القارىء هنا تلخيصا له مع بعض الايضاحات . وعلى القارىء ان يقرا هذا المقال وهو يسائل نفسه :ماذا عنده من هذه المعارف التى يقول الاستاذ دوبرى انها ضرورية للرجل المثقف ؟

اقراه ايها القارىء واسال :هل انت مثقف او نصف مثقف او غير مثقف ؟

وافهم من هذا السؤال انك تحيا على المستوى العالى للحياة، او انك لم تبلغ سوى نصف المسافة الى هذا المستوى ، او انك لا تحيا تلك الحياة الانسانية التى تسمو على حياة الشهوات ، حياة الحيوان .

لقد وضع الاستاذ دوبريه ستة شروط للرجل المثقف .

اولها : ان يعرف التركيب الطبيعى للعالم الذى نعيش فيه،

اي يجب ان يدرس الطبيعيات والفلكيات . فيعرف المواد والعناصر التى تتألف منها الارض والشمس وسائر النجوم اى الشموس . ودراسة الطبيعيات والفلكيات تحتوى الكيمياء وسائر القوى التى كنا قبل خمسين سنة نتعلمها منفصلة مثل المغنطيسية والكهربية والضوء والحرارة ، اما الآن فهى تعلم معا على اساس التركيب الذرى ، وقد ربطت المعارف الذرية هذا الكون ، فنحن والشمس والنجوم سواء فى المواد والعناصر

نحن وحدة قد انفصلت اجزاؤها ، والسبيل الى الوقوف على هذه الوحدة هو دراسة التركيب الذرى

فما عندك من هذا ايها القارىء . . . « المثقف » ؟

والشرط الثانى : ان تعرف اى حيوان انت من بين هذه الالوف من الحيوانات ، والى اية اسرة فيها تنتمى ؟ ثم ما هى الظروف والعوامل التى جعلت الانسان انسانا ؟ وما هى الظروف والعوامل التى تعمل لبقائه او لفنائه ؟

وبكلمة اخرى : هل درست تطور الاحياء فى الالف مليون سنة الماضية ، وعرفت كيف تكونت الاسنان وكبر المخ وظهرت الغدد الصماء ، وماذا يربطنا بالسمك ، ولماذا فقدنا اذنابنا ؟

انه تاريخ عظيم حافل اذا درسته ازددت انسانية، وعرفت قرابتك للزرافة وللسمك ولليمام والنعام

فماذا تعرف من هذا التاريخ ؟

والشرط الثالث للرجل المثقف هو : ان يكون قد درس الحركات الكبرى فى التاريخ البشرى . ونعنى تلك الحركات التى وجهت التاريخ البشرى وجهة اخرى ، او زادت سرعته ، او فتحت ميادين جديدة للفهم . وهناك حركات قد ملأت التاريخ ضجيجا واشتعالا ، ولكن سرعان ما هدأت وانطفأت كما نرى فى حركة الشقى تيمورلنك

أو الشقى جنكيزخان . ولن نخسر شيئا اذا جهلناها . ولكن الحركات الارتقائية البنائية ، التى استنهضت الانسان الى التقدم والاقتحام والتى لا يزال اثرها باقيا ، تحتاج الى الدراسة . ومنها اكتشاف المصريين للزراعة فهو اكتشاف أو اختراع اخرج البشر من الغابة الى حياة التمدن . ومنها اختراع الكتابة الذى يرجع الفضل فيه الى المصريين ايضا ، ومنها ايجاد الدين والحكومة والسنة والشهر والاسبوع ، ومنها اختراع المطبعة والالات . ثم اخيرا اكتشاف الذرة .

وبعد سنين حين تذهب عنا دهشة الذرة ، سيقسم التاريخ البشرى الى عصرين : الاول عصر الجاهلية قبل الذرة ، ثم عصر الفهم بعدها

والشرط الرابع للرجل المثقف: ان يعرف النظم التى يعيش بها البشر . أى نظام المجتمع ونظام الحكومة ، اى كيف يتزوج الناس وكيف يتصرفون بالثروة وكيف يوزعونها على الافراد ، وما هى الطرق التى تتبع فى الارتزاق والتعلم وصيانة الصحة ؟ ثم كيف يحكم الناس ، وكيف تحل المحاكم مشاكلهم بالعدل أو ما يفهمونه من معنى العدل ؟ بل كيف تغيرت المجتمعات البشرية؟ وما هى الاسباب الاصيلة ، التى تجعل احدى الامم راكدة آسنة، فى حين أن الاخرى ناهضة متقدمة؟ وهذه الاسئلة تطالبنا بدرس الاجتماع والقوانين والسيكلوجية والانثروبولوجية

والشرط الخامس : أن يعرف الرجل المثقف اسس القيم البشرية . وهذا يجب ان يحمله على درس الاديان والفلسفات قديمها وحديثها ، شرقيها وغربيها ، اى يجب أن يعرف ديانة المصريين القدماء وكيف تصوروا النعيم والجحيم ، ومبلغ ما فهموا من معنى العدل . وكذلك ديانات الصين والهند وايران

واليونان ، الى ظهـــور الاديان التوحيدية الكبرى

وقريب من الاديان فى الاتجاه هو الفلسفات التى حاولت بالتعقل ما حاولته الاديان بالوحى ، وهذه الفلسفات يجب ان نناقشها بعقل مفتوح منذ سقراط وارسطوطاليس الى جيمس ديوى وبـــول سارتر .

والشرط السادس والاخير : هو ان يدرس الرجـــل المثقف البلاغة البشرية اي الآداب والموسيقى والفنـــون الجميلة . لان الحياة البليغة تقتضى الاحساس العميق والتصور الجميل ، بحيث تستلهم من الادباء والفنانين أسلوبا يرقى بنا الى ان نحيا الحيـــاة الفنية ، فنجعل بيوتنا متاحف ، ونعامل الناس فى جمال الكلمة والايماءة ، ونتذوق روعة الشمس فى الغروب ، وايقاع الشـــعر ورصانة النظم وفخامة البنـــاء وجمال الصورة والتمثال

وخير ما نتعرف به الى الفنون الجميلة ان نمارسها ، وان نكون جميعا ادباء وفنانين

* *

هذه هى الشروط الستة للرجل المثقف عند الاستاذ دوبرى .

فما عندك منها ايها القارىء ؟ وهل انت تحيا الحياة العميقة البليغة التى يحياها المثقفون الذين حققوا لانفسهم هذه الشروط جميعها ؟

فاذا لم تكن كذلك فماذا تنوى ان تفعل بنفسك ، بحياتك ؟

الا تستطيع ان تشرع منـــذ اليوم فى أن تحيا الحياة العميقة البليغة ، وان تعد البرنامج الثقافى لتحقيقها ؟

شركة

صباغى البيضا

شركة مساهمة مصرية

اكبر واحدث مصانع لصباغة وطباعة الاقمشة فى الشرق

قطن مصرى
الوان جذابة

صناعة مصرية
صباغة ثابتة

رسومات جميلة

من التبلور إلى التجوهر

عندما يأخذ الكيماوى فى تحليلاته لاحدى المواد التى يقصد الى عزلها يكون منتهى ما ينشدمن نجاح ان يبلورها. اى يخرجها نقية خالصة من الاخلاط التى كانت تشوبها وهى خامة . وهذا التبلور هو محاولة للوصول الى الجوهر .

ونحن البشر فى حياتنا المدنية نولد وننشأ فى وسط المدينة او الريف . فاذا كنا اطفالا تشابهت تقاسيمنا وملامح وجوهنا كما تشابه سلوكنا الا القليل جدا مما تبرره فروق الوراثة . فنحن فى الطفولة مواد بشرية خامة لم تتبلور ولم تتجوهر .

ثم ندخل المدارس ونحترف الحرف ويؤثر الوسط الخاص اثره فى كل منا فنختلف . هذا تاجر وذاك محام . وهذا حوذى وذاك مزارع . وهذا كاتب موظف وذاك مهندس حر . وكل من هذه الحرف يطبع طابعه فى تقاسيم النفس والجسم . ثم تمضى السنوات ، عشرون او ثلاثون سنة ، ونحن نلتزم حرفة بسلوكها واخلاقها التى تقتضيها . وبمرور هذه السنين تتكشف كالزهرة من التعميم الى التخصيص ومن الحال الخامة الى حال التبلور . وكأن هذه الاختبارات التى تمر بنا تصهرنا وتخرج منا الجوهر الخاص ، اجل . هو الجوهر ولكنه جوهر الحرفة وليس جوهر الشخصية .

لذلك عندما نتأمل أحد الناس، الذين التزموا حرفة ما ثلاثين او اربعين سنة ، لا نكاد نخطىء فى تعيين حرفته دون ان نحتاج الى سؤاله عنها . اذ هى تخبرنا وهو يتحدث . لان لهجة الحرفة غالبة عليه . كما نجد من ايماءاته واختيار احاديثه وكلماته جميع الأمارات التى تعلن عن حرفته

وبخلاف هؤلاء نجد أن ذلك الشخص الذى تقلب فى حرف

كثيرة ، فهو بقال ثم سمسار ثم كاتب ثم صانع ثم مزارع ، مثل هذا الشخص لا يتبلور . فاذا قعدنا اليه فلن نعين حرفته . ذلك ان اهتماماته الحرفية لاتتجمع فى بؤرة بل تتشعع هنا وهناك . ولذلك ايضا لا يترك فى اذهاننا ، من حيث الحرفة ، صورة معينة .

ولسنا بهذا الذى ذكرنا نؤثر ذلك الملتزم لحرفة ما على الآخر الذى تقلب وتغير . وانما نريد ان نبين ان هناك تبلورا او تجوهرا نكسبه من الحرفة التى نلتزمها سنين كثيرة . كأن الحرفة قد استصفت جوهرها وعينته ونحت عنه الزوائد .

وعندما نتقدم فى السن ، ونكون قد عنينا بتربية انفسنا وتنمية شخصيتنا ، نجد اننا ايضا نتبلور ونتجوهر . ولكن ليس من حيث الحرفة فقط بل من حيث الشخصية . وصحيح ان الحرفة هى بعض المؤثرات فى الشخصية . ولكن هناك مؤثرات اخرى عديدة الى جانب الحرفة . وهى تبلورنا وتجوهرنا .

اعتبر شابا فجا خاما واعتبر ايضا رجلا فى الخمسين قد نضجت اخلاقه واينعت شخصيته وقارن بين الاثنين . تجد ان الاول لا يزال فى التعميم . فهو « احد الشبان » اما الثانى فقد تخصص وله دلالة ، هو رجل يدل ، وهو رمز الى اشياء عدة لها قيمتها الاجتماعية او الثقافية .

وهذه الرمزية وهذه الدلالة هما ثمرة الحياة الحيوية ، الحياة الفنية ، التى قضيناها ونحن نقصد الى غاية ونتبع نهجا ونكسب الاختبارات وننمو بها . وهى جميعا تصهرنا وتحيل التبر الى الذهب الخالص .

واذا كانت غايتنا ان نصل الى الشخصية اليانعة وان نتبلور الى الفكرة الجوهرية وان يستحيل وجودنا فى مجتمعنا الى دلالة ،

فان التزام الحرفة الواحدة قد يكون عندئذ معرقلا او مبطئا لانه يحد من حيويتنا واختباراتنا . اجل . يجب ان تكون الحرفة بعض مايكون شخصيتنا وينميها ويبرز الدلالة فى حياتنا . ولكن يجب الا تكون هى كل شىء .

وفن الحياة يقتضينا ان نرقى الى السنين ونسير فى التعمير ونحن على الدوام فى ازدياد التبلور والتجوهر ، ننفى الزيادات ونطلب الخلاصة . وفى حياتنا اشياء كثيرة من هذه الزيادات التى تنمو علينا كما تنمو صغار المحار والودع على السرطان فى البحر فتعوق سباحته وتتطفل على جسمه . فهناك مثلا التزامات « اجتماعية » تبعثر وقتنا . وهناك « مشاغل » مالية تستهلك طاقتنا الحيوية . بل هناك مطامع نشأت ونمت معنا بقوة التكرار وحكم العرف الاجتماعى ، اذا تأملناها بعد سن الخمسين الفيناها عقيمة تشغلنا عن الجوهر والخلاصة وتمنعنا من ان نعيش المعيشة التعقلية اليقظة فيما بقى لنا من عشرين او ثلاثين سنة .

لنكن أدباء وشعراء

ينشأ الترف للخاصة التي يتوافر لها الفراغ والمال فتستطيع ان تعيش فوق مستوى الكفاية والضرورة وتطلب ماتعده من الكماليات والزيادات ٠ وأدوات الترف في أيامنا كثيرة وهي تختلف من الطبق الصيني الذي يومىء بزخرفته الى عصر مضى ، الى بساط ايراني تزدهي الوانه ، الى غير ذلك مما لا يزال يقتنيه الاثرياء ٠ بل حتى الكتب القديمة قد اصبحت نوعا من الترف يشتريه الاثرياء ويحفظونه قنية تورث كأنها بعض الجواهر

وأدوات الترف هذه تقتنى للبيت ٠ ولكن هناك ألوانا من الترف تقتنى للنفس وتمارس كالادب والشعر وسائر الفنون الجميلة . وصحيح ان هناك من يحترفونها ويجدون فيها ضرورة العيش ووسيلته بل يجدون فيها أيضا ضرورة الحياة لانهم ينفسون بها عن كظوم نفسية ٠ وعلى ذلك ليست الفنون الجميلة عند من يحترفونها ترفا ٠ ولكنها كذلك عند من يهوونها اى يجعلون منها هواية ينفقون عليها من وقتهم ومالهم ٠ يشترون الكتب الادبية كي يقرأوها ثم لايكتفون بهذا بل يحاولون ان يكونوا ادباء وشعراء وفنانين . وهذه المحاولة ، وهي في الاغلب محاولات عديدة، قد تنتهي الى أن تكون ممارسة مزمنة ، وهي نوع من الترف . لان الممارس لهذه الفنون لايتخصص ٠ اذ هو في الاغلب موظف في الحكومة او في شركة وقد يكون معلما او طبيبا او تاجرا . ولكنه ، منذ فجر شبابه ، التفت الى لون من العمق او النضج او التأنق الفكرى عند أحد المؤلفين فاستهواه وجذبه وحمله على الاستزادة من القراءة والاطلاع ٠ ثم بعد ذلك اخذ التأليف يداعبه فصار يكتب المقالة او القصة ويقرض البيت أو البيتين ٠ بل هو ربما يعمد الى التوسع الفنى فيسأل عن الموسيقا والمسرح وينتقد ويتحرى الاصول ويحاول التعمق ٠ وهو

هنا لايبغي كسبا من هذا المجهود اذ هو لايريد احتراف الفن لانه قانع بأن يكون هاويا لااكثر

وثق أيها القارىء ان هـذا الهاوى الذى لايكسب قرشا من هوايته ، بل لعله ينفق الكثير عليها باقتناء الكتب ، هذا الهاوى لايضيع وقته . لانه بهوايته هذه قد يرتفع الى اسمى ماوصل اليه الذهن . ذلك ان الشاعر يتخير من الكلمات والمعانى مايسمو على المبتذل المألوف ، والاديب يحاول ان يحيل هذه الحياة التكرارية الآلية الى قصـيدة فنيـة ، والفيلسوف يحاول ان يبتـكر القيم الجديدة ، والعالم يحـاول ان يتعمق الاصول ، والهـاوى الذى يغمره هذا الجو ويعيش فى هذا المناخ ينتهى الى ان يتنفس هواءه ويأخذ بمقاييسه . وعندئذ ينتقل عنده التأنق والتعمق فى التعبير الى التأنق والتعمق فى الحياة . وهـو يحيا فى صميم الحياة ، فى عمق وفن وشرف . ذلك أن الاديب لا يعيش من يده الى فمه كما هو الشأن فى سائر الناس من حيث النشاط الذهنى لانه بهذا النشاط قد استطاع ان يخلق لنفسه عالما آخر يجتر فيه افكاره ويتخيل ويتأمل ويذكر الماضى ويبصر بالمستقبل ويدرس فى تعب أو لذة . ثم يقيس حاضر المجتمع وواقعه بمـا ينبغي ان يكون . وهو قد وجد فى الادباء والشعراء القدامى والعصريين من حدثوه احاديث الكمال والسمو والعـدل والشرف والانسانية والرقى : فهو بهذا كله يجد فى نفسه كظوما تحمله على التفريج بالكتابة . وقد ينجح ويعود ، اويبدأ يصف الدواء لمساوىء عصره . وقد لا ينجح فى الوصـول الى الجماهير ولكنه مع ذلك قد دخل مدينة الفن والادب والشعر واستمتع بما فيها من كنـوز . وهو لن يخرج منها طوال حياته ولن يهجرها الى غيرها .

انى أقصد ان يبدأ كل شاب حياته ، حوالى العشرين ، بالتعرف

الى الآداب والفنون والعلوم ·يبدأ متفرجا متنزها ، ثم يتدرج محاولا ثم ينتهى كاتبا · واقصدأيضا ان يبدأ الشاب وهو يجد الفن أو الشعر أو الادب فىالكتاب ولكن يجب ان ينتهىبأن يحاول ايجاد الفن والشعروالادب فى حياته · اجل ، هذه الحياة يجب الا نتركها تجرىفى نثر مبتذل بل نجعل منها قصيدة او على الاقل نجعل بعضالابيات العالية تتخلل هذا النثر فنعيش ولو لحظات فى حياتنانحس فيها المجد والقداسة والبطولة ونرى الجمال يشع منقلوبنا ·

وهنا يضحك بعضنا ساخراويقول : هذا خيال · انما الحياة مجهود نجمع فيه ونكنز لليومالعصيب والازمة الطارئةوليست الحياة قضاء الوقت فى تأليفالشعر ·

وجوابى انى لا انكر قيمةالمجهود نبذله كى نكفل الطعام واللباس والسكنى · ولكن هلمعنى هذا ان نقضى العمر كلهفى الاهتمام بالطعام واللباسوالسكنى ؟

ان الانسان لايمكن ان يكونانسانيا اذا اقتصرت اهتماماته وهمومه على الطعام واللباسوالسكنى · وانما هو يرتفع الى الانسانية عندما تجد الثقافةالفنية ، ثقافة العمق الفكرى ، مسكنا فى ذهنه تأوى اليه بلتمرح فيه وتمتزج بخلاياه وتعود جزءا لاينفصل من حياتهيوجهه ويكيفه ويعين لهالتصرف والسلوك ، اى يجعله ويضطرهالى أن يعيش المعيشة الفنية ·

أعرف شابا لايبالى ان يتغذىبأى طعام يكسر حدة الجوع · ولايبالى أىلباس يتخذ.ومسكنهغرفة فوق سطح أحد المنازل · وهو بهذه المعيشة غير متمدنأى انه لا يتمتع بمتع الحضارة فى السكنى واللباس والطعام ·وهى متع لاتنكر قيمتها · ولكن هذه القيمة صغيرة جدا الى جنبالمتع الثقافية الفنية التى يلمع

بها الذهن وتسمو بها النفس .والمقارنة بين الذهن المثقف وبين حضارة السكنى والطعام واللباس، هى اشبه المقارنات بنظافة الجسم الى نظافة اللباس . وقد كان هذا شأن هذا الشاب. فانه على الرغم من تقتيره فى هذه الاشياء او بالاحرى اهمالها ، كان لا يترك كتابا يستحق القراءة الا اقتناه ، كما كان لا يتاخر عن شراء التذاكر الغالية لحضور حفلة موسيقية . وكنت اجده زرى الهيئة نحيلا ولكن ذهنه حافل بالاثاث العصرى للثقافة ونفسه فنانة لها قدرة كبيرة على التمييز الفنى . ولذلك كان فقيرا بوسطه غنيا بنفسه .

وقد يكون هذا المثال متطرفا او مسرفا . ولكن الحياة الراقية تحتاج الى ان نمارس فنا جميلا ينعكس اثره فى نفوسنا وعقولنا. فيجب الا نقرأ الشعر والادب فقط بل نحاول ممارستهما. أجل . يجب ان نكون كلنا ادباء وشعراء وعلماء نكتب الادب ونقرض الشعر ونستطلع العلم. بل أكثر من هذا . تنقل الادب والشعر الى حياتنا . ليؤلف كل منا حياته . فنحترف المجد ونمارس القداسة ونتزع الى البطولة فى الدفاع عن حق او الانتصار لمظلوم ونفكر فى اسمى المعانى ونعبر بأنصع الكلمات .

واولئك الذين ينشدون السعادة ولا يعرفون ما هى ، قد يجدونها فى ممارسة الآداب والفنون من حيث لايدرون . وخاصة اذا انتقلت هذه الممارسة من اللهو والتسلية الى الكفاح والدعوة لعالم اسمى ، اى عالم يعيش فيه الناس على مرتبة سامية من الحضارة الفنية فى مجتمع علمى

السعادة

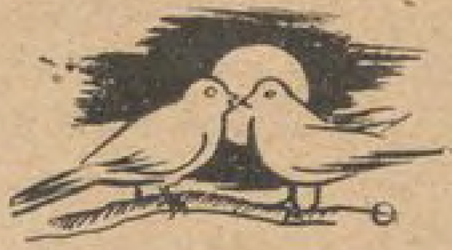

السعادة هي سلام النفس .واول مايجب ان نعرفه عنها انها ليست مادية . ويجب ان نميزهنا بين السعادة والسرور لانهما كثيرا مايشتبهان . ذلك ان السرور ، او اللذة ، مادية . اما السعادة ففكرية . فنحن نسعد بالفكر او بالايمان او الرؤيا او الامل بحيث يحفزنا واحد من هذه الاشياء الاربعة الى كفاح . ولكنا نسر ونلتذ بالطعام اواللباس او المال او الشهوات الجسمية .

والمسرات والملذات ، لانهامادية، تتوقف على جوع رشبع او طمع يحقق ، ثم تؤجم في النهاية اى تؤدى الى السأم . ولكن السعادة لانهافكرية،ولانها تنهض على ايمان او كفاح او اتجاه ، لاتؤجم اى لاتؤدى الى سأم .فالقديس مثلا سعيد بايمانه وهو يستشهد بى فرح وطرب .وسعادته هنا فكرية . ولكن لذة الطعام تنتهي عند الشبع ، بل تحدث بعده صدودا .

وهناك اعتبارات اخرى تجعل السعادة دائما باقية والسرور وقتيا زائلا . ذلك اننا حين نسعد بالفكرة لا يعوق سعادتنا حد او غيرة او مقارنة مهينة لنا بغيرنا او احساس النقص بأن هناك من يحوزون اكثر مما حزنا . فقد اسر لانى اشتريت عزبة أو اقتنيت سيارة او غير ذلك من المقتنيات المادية . ولكنى فى هذا السرور احس ايضا انى كنت اكون اكثر سرورا لو لم ... فان العزبة كانت تكون اسر لى لو كانت اكبر واخصب .وكانت السيارة تمتعنى اكثر لو كانت من طراز آخر . وهلم جرا . ولكن السعيد بفكرة ما لا يحسد ولا يغار ولا يحب ان يستأثر بفكرته . بل هو يحب العكس .وهو ان جميع الناس يسعدون بمثل سعادته ، كما يحدث لاحدنا حين يطرب لاستماعه الى لحن جميل أو لانه يتأمل مبنى عظيما ،فانه يحث رفيقه على أن يستمع او ينظر

ونتأمل معه ويشاركه فى فرحه وطربه

والسعادة ، كالشعر عند اسحق الموصلي ، ايسر مما نظن .
فهى لاتحتاج الى التكلف او المشقة . بل ان السرور ادعى الى تكلف او المشقة من السعادة وذلك لان السعادة ذاتية، فى ذوات انفسنا ، اذ هى حال معينة او اتجاه معين . اما السرور فمادى نحتاج فيه الى الاقتناء .

وقد يكون ايضا من الحق ان نميز بين السرور والسعادة بأن نقول ان السرور اشتهائى غريزى يتعلق بما نأكل او نلبس او نسكن او نقتني . ولكن السعادة تعقلية مرجعها الفكر اى العقل . والسعادة لهذا السبب تحتاج الى التربية الفنية بل الى المعارف العلمية التى تكشف عن خبايا وكنوز لاتصل الى كنهها الغرائز . فانا حين أمارس الزهو الاجتماعى باقتناء الاثاث الفاخر او بالقيام بالضيافة المطهمة اونحو ذلك امارس نشاطا غريزيا شهوانيا له ذيول وهوامش من الغيرة والحسد والطمع . اى انه سرور معلق ولا احتاج ان اتعلم كيف أمارسه ، ولكني حين اقعد الى جدول الماء واتأمل الطبيعة وهي ترغى وتزبد فى الحقول ايام الربيع واتابع فراشة فى نشاطها الغذائى او الجنسى ، احس سعادة مطلقة . سعادة مخية وليست غريزية شهوانية . وهذه السعادة تحتاج الى تعلم .

واذا كان القارىء قد تابعنا فى منطقنا فانه يستطيع ان يعرف لماذا نكون سعدان عندما نتأمل مقطوعة فنية من الشعر أو الرسم او البناء او نستمع الى مقطوعة فنية من الغناء او الموسيقا فنحن هنا ازاء سعادة مطلقة هى فوق الشهوات الغريزية . ونحن لانأجم هذه السعادة ولانملها كما انها لا تبعث فينا غيرة او حسدا او طمعا . ومن هنا سعادة الفنان وسعادة الفيلسوف . كلاهما سعيد بفكرته ، بل ان العالم الذى يبحث موضوعا علميا سعيدا يضا بعلمه لانه يحاول كشف سر من أسرار الطبيعة المغلقة . فهو هنا

كالقديس يرى رؤيا ويعتقد انهاستتحقق ويجهد وهو سعيد لتحقيقها

وليس شك ان السعادة هي سلام النفس • وهل شك احد في ان سلام النفس هو فكري وليس ماديا.؟

والعجب ان المتع الحقيقية في هذا العالم ، تلك المتع التي نسعد بها، اسهل حصولا وارخص قيمة من المتع الزائفة التي قصارى ماتؤدي اليه اننا نسر بها سرورا وقتيا زائلا • وهي يجب ان تكون كذلك لان السعادة فكرية ،والفكر لايكلفنا مالا ولكن السرور مادي يكلفنا مالا وجهدا •واحيانا تفوتنا فرصة السعادة ، فرصة الحياة الفنية ، لاننا استغرقنا حياتنا في السرور واللذة •

ونستطيع ان نعود هنا الى المقارنة بين القيمة البشرية والقيمة الاجتماعية • ذلك ان قيمة السعادة بشرية : في الفكر والاتجاه والتأنق الفني والفلسفي والتحقيق العلمي والرؤيا للمستقبل والمثليات والكفاح لهذه الاشياء جميعها • وجميع هذه الصفات ذاتية في ذات انفسنا • وهي بشرية ليس لها قيمة اجتماعية • ولكن قيمة السرور اجتماعية في الاغلب لانها تنشأ من اعتبارات المجتمع •لاني أسر مثلا باقتناء سيارة اذ أن مثل هذا الاقتناء قد عده المجتمع تبريزا وتفوقا . أو أسر بالثراء لان المجتمع يعد الثراء تفوقا ونجاحا •

وهل نستطيع ان نتعلم كيف نكون سعداء ؟

أجل • نستطيع ذلك بأن نجعل عقولنا فوق غرائزنا اى نجعل التعقل فوق الشهوات •وكذلك بأن نتعلم ونهتم بما هو اسمى من همومنا الشخصية •نهتم بالناس والسياسة والاستعمار والنجوم والكواكب والحيوان والنبات ومستقبل البشر وماضي الاحياء ، والتطور الماضي والقادم ، والمرض والصحة

والدين والعلم والادب والفلسفة. وهذه الاهتمامات المتعددة تبسط لنا آفاقا رحبة للتفكير فلا تحدنا حدود الشهوة ولا تستعبدنا الغرائز في اهتمامات مادية غايتها لذة الطعام ومتعة اللباس والمسكن واقتناء مواد لاتحصى بل لاتفتأ تبعث فينا الرغبة في الزيادة. هذه الرغبة التي تجهدنا بل احيانا نسير فيها سادرين ذاهلين وقد نموت قبل أواننا ونحن لاندرى اننا كنا مسوقين باعتبارات اجتماعية هي أبعد ما تكون من السعادة .

قلنا في أول هذا الفصل ، اننا نسعد بالفكرة او الايمان او الرؤيا أو الامل اذا كان أحد هذه الاربعة يحفزنا الى الكفاح . وهنا نحتاج الى تفصيل موجز : ذلك ان الطاقة النفسية لاتتحمل الحبس والكتم ولذلك فان لشأن ما ، اى شأن نعتقد انه حسن ، يفتح لنا قناة تنصرف اليها الطاقة . اما اذا حبست هذه الطاقة فانها تحدث لنا في الحالات الخفيفة « نيوروزا » اى ضيقا عاطفيا . وفي الحالات الخطيرة تحدث « سيكوزا » اى جنونا .

ولذلك كثيرا ما نجد الشاب مضطربا متشائما تسوده هموم مبهمة لايعرف مأتاها فاذا انضوى الى حركة سياسية مثلا انطلق في تفاؤل يعمل ويسر بعمله . وهو سعيد بهذا الكفاح الذى يبعث فيه نشاطا ويحمله على الدرس والخدمة والتعاون ويخرجه من انانيته . وهو هنا يشعر بالسعادة

وعلى هذا نقول ان السعادة تحتاج الى كفاح . وسلام النفس لا يعنى ركودا وجمودا بل هو أحرى بأن يبعث نشاطا وهمة وانجازا لامل او تحقيقا لرؤيا ، بحيث يكون هذا الامل او هذه الرؤيا عند احدنا اسمى وأعم من همومنا الشخصية الذاتية لانها بسموها وعموميتها تكسبنا كرامة وتجعل لحياتنا معنى بل دلالة . وهنا السعادة .

السعادة ان تخدم فكرة وان يكون لحياتنا دلالة

تعقيب على السعادة

كلنا تقريبا ننشد السعادة ونتحدث عنها كما لو كانت من البديهيات التى لا تستحق مناقشة لاننا نعد السعادة خير ما يطلب فى هذا الوجود

ولكننا نختلف كثيرا فى معنى السعادة . وان كان المألوف أننا نعنى بهذه الكلمة الامن من الكوارث وراحة البال ، أى سلام النفس والصحة .

ولكن اذا كان هذا هو كل ما نعنى بالسعادة فان كثيرين ، بل كثيرين جدا ، يحققونها . ومع ذلك لا يجدون منا غير الاحتقار ، لاننا لا نحسدهم على حالهم هذه . اذ هى تشبه الركود والذهول بحيث تستحيل حياتهم نباتية خالية من التفزز والتنبه ، ثم مايعقب هذا من تبلد ذهنى يشبه الجمود

والرجل الذى تنزل به الكوارث المتعددة هو – فى القيم الانسانية كالذكاء والاختبار والتعلم – خير من السعيد الذاهل الذى لم تنبهه قط نكبة فادحة تجعله يقف ويتساءل : « أين موقفى من هذا العالم ؟ »

والسعداء الذاهلون كثيرون جدا ، وهم يستغرقون فى المسرات وينشدون الثراء ، ويبلغونه ويحققونه ... وقد يعيشون فى القصر الفخم ، ويأكلون أطيب الطعام ، ويتنقلون فى الفصول من المصيف الى المشتى ويجدون حاشية من الخدم ، كما أن شهواتهم تجد الاشباع الدائم ، وراحتهم رفاهية ، ورفاهيتهم ترف وبذخ .

ولكن قليلا من الحديث مع أحدهم يوضح لنا أن سعادتهم انما هى ذهول وخمود وتبلد ، وأنهم لو كانت الاقدار قد رفقت بهم لكانت قد كرثتهم بنكبة فادحة ، توقظهم من سباتهم .

وحالهم تذكرنا بالحكمة القائلة بأن أعظم ما ينكب به انسان الا

ينكب ، ذلك ان هؤلاء السعداء الذاهلين يجدون فى الكائنات الدنيا ما هو أسعد منهم . فان الديدان والحشرات مثلا أسعد ، لانها اكثر ذهولا منهم ، وهي أيضا ابعد عن الكوارث .. اذ أقل ما يقال فيها انها لا تعرف الكوارث الا وقت وقوعها بها فلا تكاد تحسها لان الموت يدركها

ومثل هذه السعادة يجب ألا ننشدها .. لان السعادة العليا التى هى صفة الانسان العالى هى العقل . وكلما زاد العقل زادت السعادة ، ولكن ... زادت الكوارث ، والهموم والاهتمامات أيضا

والناس فى أغلب أحوالهم يعيشون بالتصور الحسي لانه هو التصور البدائى بل الحيوانى الذى لا يحتاج الى مجهود . ولكن الرجل الراقى يدرب نفسه على التصور العقلى . فنحن مثلا نتأثر عندما نرى طفلا قد وقع من الترام وقطعت ساقه .. ولكننا حين نقرأ أن ثلاثة ملايين هندى ماتوا بالقحط ، لا نكاد نقف عند سطور هذا الخبر كي نتصور هول هذه الكارثة ..! فالحادث الاول سريع الى حواسنا لاننا قريبون منه رايناه بأعيننا ، وتأثرنا لذلك سريع ، ولكن الحادث الثانى يحتاج الى مجهود عقلى حتى نتأثر به اى يجب أن نتصوره فى مخيلتنا

وعلى هذا القياس نقول ان السعادة نوعان الاول هو سعادة الحواس ، أى المسرات الحسيه المادية . أما الثانى فهو سعادة العقل أى سعادة التعقل والتصور ، السعادة الفكرية . وهذه السعادة الفكرية لا تبالى الكوارث ، بل أن الكوارث تخصبها ، وتزيدها نضجا وايناعا ، بحيث أننا عندما نمر بنا السنين ننظر الى التقلبات والنكبات التى نزلت بنا كما لو كنا قد عشنا حيوات عديدة بدلا من حياة واحدة .. وكثيرا ما أعود بالذكرى الى بعض الصدمات والكوارث والاحزان التى مرت بى فأجد ان كلا منها كان بمثابة الدرجة التى ارتقيت عليها صاعدا فى سلم الحياة لانها زادت تعمقى

للحياة وتوسعى فى الاختبارات واكسبتنى هموما قد استحالت الى اهتمامات لا أرضى بالنزول عنها الآن .

ولذلك أستطيع أن أقول ان الحياة السعيدة هى الحياة الحيوية التى تزيد فيها درجة الحياة حدة ويقظة وتنبها أى تعقلا . والهموم والازمات والكوارث تجعل حياتنا لذلك حيوية .. وهى تزيدنا سعادة . اما الامن من الكوارث والمعيشة الحسية والمسرات المادية فتجعلنا نعيش فيما يقارب الذهول ، فلانتنبه ولا نحتد اى لا نتعقل فى حدة ودقة وامعان . ولو كانت هذه السعادة هى ما يجب أن نطلب لكان أدنا الحيوانات أسعد منا . بل عندئذ كنا نكون أسعد بالنوم منا باليقظة ، وبالموت منا بالنوم .

أجل . لم يكن الملك السابق فاروق سعيدا بكل حيوانيته

ولذة الدنيا هى فى النهاية : اختباراتها ، ومشاكلها ومآزقها وأزماتها . ثم تحدى كل هذه الاشياء بالتعقل . وذلك الذى يبغى السعادة فى معناها الانسانى العالى ، يجب أن يزيد حياته حيوية لاان ينقص هذه الحياة بالاقتصار على المعيشة الحسية ، على المسرات

هذه هى السعادة التى تستحق ان ننشدها . السعادة هى الفهم بالتعقل

I 14620820
B 12968882

DAT

MAY - 1977

main

00000019596

BJ 1588 A7 M8/c.1

TE DUE

-MAY 1986

12 JAN 1987

19596

BJ
1588
A7